يوهان ولفجانج فون جوته

هرمن و دروتيه



ترجمها عن الألمانية
د. محمد عوض محمد

تقديم
د. طه حسين



للدراسات والترجمة والنشر
دمشق ـــ اوتوستراد المزة
هاتف ٨١٦١٢٦ ـــ ٨٨٦٩٥١
تلكس ٤١٢٠٥٠
ص . ب : ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

ريع الدار مخصص
لصالح مدارس ابناء الشهداء
في القطر العربي السوري

هرمن ودروتيه

«قصـــة»

طبعة ١٩٨٥

يوهـــان ولفجانج فون جـــوته

هرمن ودروتيه

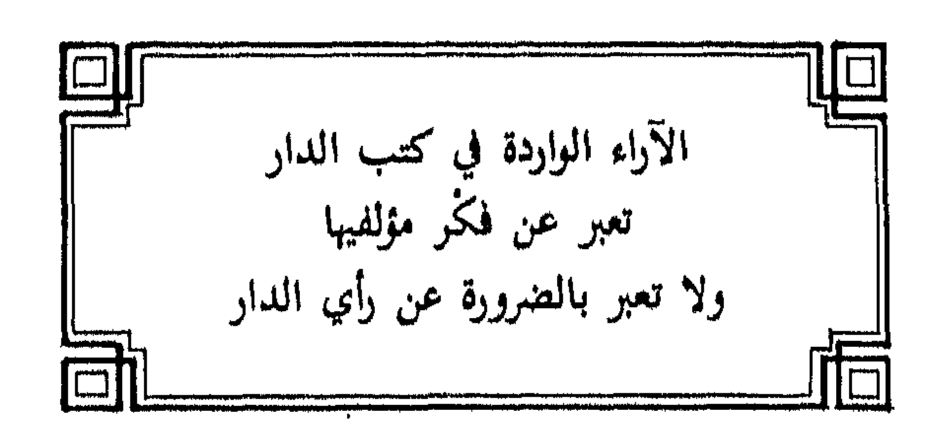
«قصّـــة»

ترجمها عن الألمانية

د. محمّد عوض محمّد

تقديم

د. طه حسين



الآراء الواردة في كتب الدار
تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

مقدمة

للدكتور طه حسين

أتيح لي منذ أكثر من عشر سنين أن أقدم إلى قراء العربية في الشرق جوته حين قدمت إليهم ترجمة صديقي الزيات لآلام فرتر . وأتيح لي بعد ذلك بأعوام أن أتحدث إلى قراء اللغة العربية في الشرق عن جوته مرة أخرى حين قدمت إليهم ترجمة صديقي عوض لقصة فاوست . ويتاح لي اليوم أن أتحدث إلى قراء العربية في الشرق مرة ثالثة عن جوته وأنا أقدم إليهم ترجمة صديقي عوض لهذه الآية الخالدة من آيات جوته ، وهي قصة «هرمن ودروتيه» . وأنا أكتب هذا الفصل وفي نفسي عاطفتان قويتان تبعثان فيها السرور والغبطة وتملآنها

بالرضى والابتهاج : إحداهما عاطفة الأثرة التي يمقتها الناس عادة ويذمها فلاسفة الأخلاق دائما ، والتي لا أتحرج من أن أقبلها الآن وأستعذب الشعور بها لحظات قصارا ، لأني إنسان أجد ما يجده الناس من هذه العواطف التي تنشأ عن الضعف فتملأ النفس غرورا وتبعث فيها الحاجة إلى الفخر . ومالي لا أستعذب هذا الضعف ولا أستلذ الحاجة إلى الفخر . وليس من الأشياء اليسيرة ولا القليلة الخطر ، أن يختصك الله بهذه النعمة ، نعمة التعريف بجوته وتقديمه ، وتقديم شيء من آثاره الخالدة إلى أجيال الشرق العربي على اختلافها .

لقد كنت وما زلت أشعر وأنا أقدم هذا الشاعر الفيلسوف العظيم إلى أهل الشرق أني أستقبله في داري وأقدم إليه من ألوان التضييف والإكرام ما أقدر عليه وما هو أهل لأضعافه . وأي شرف أحسن في النفس وقعاً وأدعى إلى الفخر والكبرياء من استقبال هذا الرجل العظيم وتقديمه إلى الشرقيين ، بل تقديم الشرقيين إليه ولا سيما بعد أن مضت الأعوام بشخصيته الفردية والوطنية وجعلته رجلا إنسانيا عالميا فوق الفرد وفوق الأمة الألمانية التي أنجبته وفوق العصر الذي

عاش فيه بل فوق العصور جميعا! ويزيد هذه العاطفة في نفسي قوة وبها استئثار أنى لم أكد أقدم جوته إلى الشرقيين حتى أحبوه وأقبلوا عليه يقرأونه ويدرسونه ويلتمسون عنده غذاء العقل والعاطفة والشعور؛ فلم تكد تظهر آلام فرتر وتذيع في الناس حتى أساغوها واستعذبوها وطلبوا المزيد من آثار هذا الرجل العظيم. فظهرت لهم قصة فاوست، فإذا هم يجدون فيها مزاجاً قيما بديعاً من الأدب الرائع والفن الرفيع والفلسفة العليا. وإذا هم يقرأون ويدرسون ويستزيدون، وإذا صديقي عوض يلبي هذا الدعاء ويستجيب لهذا النداء، فيترجم لهم هذه الآية التي أقدمها إلى القراء اليوم، وهي قصة «هرمن ودروتيه».

هذه إحدى العاطفتين اللتين أشعر بهما وأنا أكتب هذا الفصل. فأما العاطفة الأخرى فقد تحدثت عنها وأنا أتحدث عن العاطفة الأولى. ذلك أني أشعر بشيء من الإيثار وحب الخير للناس جميعاً، وأشعر بشيء من الغبطة حين أراهم يظفرون بهذا الخير الممتاز الذي يهديه إليهم الأدباء والعلماء من حين إلى حين، فيرفهون عليهم ويريحونهم ساعات

أو أياماً من هذا العناء الطويل الثقيل الجاف الخشن: عناء الحياة.

ذلك أني لم أقرأ كتاباً يعجبني ولم أستمتع بأثر من الآثار الأدبية الرائعة إلا ازددت إعجابا بهذا التشبيه الشائع الذي يصور الحياة كأنها صحراء عريضة مقفرة، محرقة الشمس غليظة الأرض مضطربة الريح كثيرة الرمال، ندفع فيها دفعاً لا قبل لنا بمقاومته فنلقى فيها الأهوال والخطوب؛ ولكن الأدب والفن والفلسفة تتيح لنا من حين إلى حين أن نستريح من هذا الجهد المضني حين نلقي في بعض الطريق وسط هذه الصحراء المهلكة واحة نضرة، فيها الشجر والزهر، والروض والماء العذب، والنسيم الحلو العليل.

فهل يستطيع الناس أن يشكروا للشعراء والكتاب والفنيين والفلاسفة ما يسدون إليهم من نعمة وما يقدمون إليهم من معروف حين ينشئون لهم هذه الواحات التي يطمئنون فيها ويجددون فيها نشاطهم ويذوقون من نعيمها وبهجتها ولذتها ما يعينهم على المضي في سفرهم الطويل الشاق؟ وهل يستطيع الشرقيون أن يشكروا لهؤلاء الأدباء

الذين يترجمون لهم آيات الأدب والفن والفلسفة فيتيحون لهم من النعمة ما أتيح للأمم التي نبغ فيها عظماء الرجال وينسون أنفسهم ويمحون شخصياتهم ويقنعون بمكان المترجم، الذي ليس هو بالقارىء المستريح ولا المنتج النابغة، ولكنه صلة بين الرجلين؛ لا حظّ له من راحة الأول ولا حظّ له من مجد الثاني؛ وإنما هو خادم مخلص مؤثر أمين يرفع القارىء إلى حيث يذوق جمال الفن وجلاله، ويشق لآثار النابهين من الأدباء والفلاسفة طرقا جديدة إلى عقول الناس وقلوبهم ويتيح لهم بسط سلطانهم الخيِّر على مختلف البيئات والأجيال.

هذه منزلة المترجم بين المنتجين والمستهلكين في الفن والأدب والفلسفة كما يقول أصحاب الاقتصاد؛ يراها الناس يسيرة وأراها عظيمة جليلة الخطر؛ وحسبك أنها هي التي تحقق الصلة القوية بين الأجيال والشعوب، فتزيل ما بينهم من الفروق، وتدني بعضهم من بعض، وتقربهم من هذا المثل الأعلى الذي يقوم على رقي العقل والخلق والشعور وحب الخير والإخلاص في طلب السلام؛ فلنعرف لهم ذلك على أقل تقدير إذا لم نستطع أن نجزيهم بخير منه على ما يسدون إلى

الأفراد والجماعات من مأثرة وما يهدون إليهم من جميل.

○

فرغ جوته في أواسط سنة ١٧٩٦ من قصته البديعة «ولهلم ميستر» وأرسل آخر جزء من أجزائها إلى صديقه شيلر وأعلن إليه في كتاب أرسله مع هذا الجزء أنه يريد أن يستريح من العناء الذي لقيه في وضع هذه القصة بوضع قصة أخرى غرامية أبطالها من أهل المدن. وكان كل شيء حول جوته يدفعه إلى وضع هذه القصة وإلى وضعها على هذا النحو الذي سيراه القراء حين يقرأون هذه الترجمة التي أقدمها إليهم.

كانت الثورة الفرنسية قد غيرت نظام الطبقات التي تتألف منها الجماعة، فأزالت الفروق السياسية والاجتماعية، وسوّت بين الناس في الحقوق والواجبات، ورفعت من شأن الطبقات الوسطى من أهل المدن، لأن هذه الطبقات كانت راقية مهيأة للنهوض بأعباء الحياة العامة واحتمال تبعاتها والاستمتاع بما فيها من منفعة وقوة وسلطان.

أزالت الثورة الفرنسية سلطان الأشراف، ولكنها لم تنقله إلى الطبقات الدنيا لأن هذه الطبقات لم تكن مهيأة للنهوض به، فاكتفت بنقله إلى الطبقات الوسطى؛ وتركت للاشتراكية التمهيد لسيادة العمال ومن إليهم، فكان الشعور في أوروبا كلها وفي فرنسا وجاراتها خاصة، قويا لأن عصر السيادة والعزة للطبقات الوسطى قد أظل الإنسانية، فلا غرابة في أن تنبعث الحياة القوية الخصبة في نفوس هذه الطبقات وفي أن تضطر الفلاسفة والأدباء إلى العناية بها والتفكير فيها، ولا غرابة في أن يفكر جوته في أن يتخذ منها أبطالا لقصصه وآثاره المختلفة.

وكان الشاعر الألماني فوس قد وضع قصة شعرية وصف فيها الحب ونشأته بين المحبين وتداني هذين المحبين حتى تكون الخطبة ثم يكون الزواج وما يحيط بهذا كله من لذة وبهجة ومن ألم وحزن ثم من رضى وابتهاج. وكان عنوان هذه القصة «لويز»، وكان الألمانيون قد فتنوا بها حين ظهرت سنة ١٧٨٤. وكان جوته نفسه من أشد الناس حباً لها وافتتاناً بها. وأنت تعلم أن من أخص خصال الشاعر وأقواها وأشدها

تأثيراً في حياته الفنية أنه لا يكاد يعجب بأثر من الآثار الأدبية حتى يود لو استطاع أن يحاكيه وينشىء مثله . وكان جوته كما تعرف مشغوفاً بالأدب اليوناني وبالقصص والتمثيل منه خاصة ، وكان شديد الحرص على أن يحاكي هذا الأدب ويحتذيه وينشىء مثله . وكان لا يتهيب شعراء التمثيل اليونانيين ، ولكنه كان يكبر هوميروس ويخافه ولا يكاد يحدث نفسه بالطمع في محاكاته أو مجاراته . ولكن عالماً ألمانياً هو وولف كان قد نهض في هذا العصر إلى هذا المعبد الذي كان يقيم فيه صنم هوميروس ففتحه ودخله وزار حجراته وغرفاته ، ثم خرج فأعلن إلى الناس أنه لم يجد صنما واحداً وإنما وجد أصناماً ، وأن هوميروس ليس كما كان الناس يعتقدون ، هذا الشاعر الإلهي العظيم الذي لا يجارى ولا يبارى ، وإنما هو في أكبر الظن شاعر نابغة قد جاراه من غير شك كثير من الشعراء ، فبرعوا كما برع ونبغوا كما نبغ ، ونسبت آثارهم الخالدة إليه دونهم ، فزعم الناس أنه وحده صاحب «الإلياذة» و «والأودسيا» ، على حين أن نصيبه من هاتين الآيتين يسير .

فلم يكد جوته يقرأ ما كتبه وولف حتى أحس بالشجاعة على أن يجاري شعراء «الإلياذة» و «الأودسيا» كما جارى شعراء التمثيل، وكتب إلى وولف يذكر له ميله إلى أن يكون أحد هؤلاء الشعراء الهوميريين.

وكانت الأنباء قد استفاضت بفتنة دينية في مدينة سلزبورج انتهت بطرد البروتستنتيين منها. فهاجر هؤلاء في حالة سيئة، ومروا في هجرتهم هذه بإحدى المدن، فخرج الناس ينظرون إليهم، وكان بين هؤلاء الناس شاب رأى بين المهاجرين فتاة راقته فأحبها، ولكنه لم يعلن إليها بالحب، وإنما طلب إليها أن تتبعه على أن تكون خادماً لأسرته فقبلت. فلما انتهت معه إلى البيت أعلنت الخطبة وقبلتها الفتاة، وقدمت إلى الفتى شيئا من النقد كانت تحمله أهدته إليه مهراً لها.

فلما انتهت هذه القصة إلى جوته في هذه الظروف التي كانت تحيط به والتي أجملتها لك آنفا كان كل شيء قد تم، ليستطيع شاعرنا العظيم أن يضع هذه القصة الشعرية التي يستريح بها من العناء الذي لقيه في تأليف قصة «وهلم ميستر».

ليس ما يمنعه من محاكاة هوميروس فقد حاكاه الشعراء من قبله، وليس ما يمنعه من أن يجاري «فوس» ويضع قصة كقصة «لويز»، وليس ما يمنعه من أن يلائم بين هذين الميلين، فيحاكي في قصة واحدة الشاعر اليوناني القديم والشاعر الألماني الحديث.

أما محاكاة الشاعر الألماني فيسيرة سهلة لا مشقة فيها ولا عناء، وليس من شك في أن الفوز فيها محقق لعبقرية جوته. ولكن الخطر كل الخطر والعسر كل العسر في محاكاة هوميروس، وللشعر الحماسي كما نجده في الإلياذة والأودسيا شروط وأصول منها ما يتصل بموضوعه ومنها ما يتصل بشكله وصورته، وليس من اليسير على جوته أن يرعى هذه الأصول ويحقق هذه الشروط، ولئن فعل فلن يكون من اليسير أن يذوقه الناس ويعجبوا به. فالشعر الحماسي لم يقبل إلى أيام جوته أن يكون له موضوع غير الحوادث الخارقة العالية التي تتصل بالأبطال والآلهة، وكل محاولة للنزول بهذا الشعر عن هذه المنزلة قد لقيت الإخفاق. والشعر الحماسي في حاجة إلى وزن خاص، هو هنا الوزن السداسي الذي لم يألفه الألمان

ولم تستقم له اللغة الألمانية. والشعر الحماسي يحتاج في ألفاظه وأساليبه إلى شيء عظيم من الفخامة والضخامة والجلال الذي يبهر العقل والخيال ويملأ السمع والقلب معا، فكيف السبيل إلى تحقيق هذا كله، وكيف السبيل بعد تحقيقه إلى حمل الناس على قبوله وإساغته.

هذه هي المعضلة التي فرضت نفسها على جوته حين فكر في إنشاء قصته الغرامية. ولكن جوته ليس رجلا مثلك ومثلي، وإنما هو رجل نابغة فذ. تستطيع المعضلات أن تفرض نفسها عليه ويستطيع هو أن يجد لها الحل وأن يفرضه عليها. وكذلك فعل. ويحدثنا شيلر في بعض كتبه إلى صديق له أنه هو وامرأته لم يكونا يدريان بأي الأمرين يعجبان من جوته حين يضع هذه القصة فيطلعهما على خمسين ومئة بيت في اليوم، أيعجبان بهذا الشعر أم يعجبان بسهولة تأتيه للشاعر وسرعة الشاعر في إنشائه. ويقارن شيلر في شيء من الإعجاب والحزن بين نفسه وبين جوته؛ فبينما هو يجهد نفسه ويكلفها ألوان العناء ليخرج للناس أدباً لا يكاد يرضاه، إذا

جوته يهز شجرة نبوغه فيساقط عليه منها ألذ الثمار طعماً وأكبرها حجماً.

وقد كان شيلر موفقاً في هذه المقارنة، موفقاً في إعجابه ببراعة جوته وخصب قريحته؛ فقد انقاد له الشعر ووضع هذه القصة في أقصر وقت، وتكلف فيها أقل عناء، وجاءت على هذه السرعة والسهولة من أحسن الآيات التي أخرجها للناس.

يحتاج الشعر الحماسي إلى موضوع له خطر وجلال، وقد وفق جوته إلى هذا الموضوع وهو الثورة الفرنسية. وأين تقع حرب طروادة من الثورة الفرنسية! ولكن جوته لم يتخذ الثورة أصلا للقصة، وإنما اتخذها إطاراً لها، ورأى أن هذا يكفي لإرضاء إلهة الشعر القصصي. فأما أبطال هذه القصة فقد اختارهم جوته بين هذه الطبقة الوسطى التي ظهرت بالسيادةالفعلية في فرنسا والتي تطمح إلى السيادة في ألمانيا. وقد أحس جوته من إلهة الشعر القصصي نفوراً من هؤلاء الأبطال العاديين إن صح هذا التعبير، ولكنه استطاع أن يزيل

هذا النفور وأن يطلق لسان الشعر القصصي بمآثر هؤلاء الأبطال .

هل أنا في حاجة إلى أن ألخص لك هذه القصة التي هي بين يديك؟ لا بد من ذلك في أسطر قليلة لترى موضع البراعة في قصة جوته :

قوم من الألمان المجاورين لفرنسا قد رأوا الثورة ففتنوا بها وخلبتهم مبادئها العالية ، ولكنهم لم يلبثوا أن رأوا ما أثارت من الحروب ، وإذا هي تطردهم من بلادهم وإذا هم يعبرون الرين مشردين، وهم في طريقهم يمرون بمدينة ألمانية صغيرة، فتبتدىء القصة في هذا المكان ، تبتدىء فيه وتنتهي فيه في أقل من يوم . ذلك أن أهل المدينة قد هرعوا إلى الطريق العامة ليروا هؤلاء المشردين وليحملوا إليهم ما يستطيعون تقديمه من المؤونة . وكان بين أهل المدينة فتى هو هرمن، أبوه صاحب فندق ، وقد خرج يحمل إلى هؤلاء المشردين ما جمعت له أمه من طعام وشراب وكسوة ، فرأى بين هؤلاء الناس فتاة بارعة الجمال رزينة رصينة ، لم يكد يراها ويتحدث إليها حتى شغفت قلبه فعاد إلى أسرته وقد جن بها جنوناً .

وكان أبوه وأمه شديدي الرغبة في تزويجه، وفي تزويجه من فتاة غنية لها ثروة ضخمة ومكان رفيع في المدينة. وكان أبوه شديد الحرص على هذا الزواج لأن فيه الثروة والرفعة معاً، ولكن الفتى لم يظهر ميلا إلى هذا الزواج، بل أظهر منه نفوراً وعنه ازورارا، فسخط أبوه واشتد سخطه، وانصرف الفتى محزوناً كئيباً، ثم تتبعته أمه باحثة عنه حتى تظفر به في ظل شجرة فإذا هو يائس قد اعتزم أن يفني ما بقي من أيامه في الحرب دفاعاً عن مدينته إن تعرضت للخطر؛ وما تزال أمه به حتى تعلم علمه، وإذا هو مشغوف بهذه المهاجرة يريد أن يتخذها له زوجا، وما أسرع ما تطيب أمه نفسها بهذه الفكرة، وما أشد ما تجتهد بإقناع الوالد بها؛ ولكن الوالد مغضب سيء الظن لا يطمئن إلى هذا الرأي إلا كارها، وعلى أن يذهب صديقان أحدهما صيدلي والآخر قسيس ليعلما علم الفتاة، فيذهبان ويرافقهما الفتى وقد رأيا الفتاة فأعجبتهما ورضياها للفتى زوجا، وعادا بهذا النبأ إلى الأسرة، وتخلف الشاب ليعلن حبه إلى الفتاة. ولكنه لم يجرؤ على ذلك لأن الفتاة قد ملأت نفسه هيبة وروعة، ولأنه رأى في أصبعها

خاتم الخطبة، ولكنه مع ذلك يعرض عليها الخدمة في بيته فتقبل؛ ولعلها أحست حب الفتى، ولعلها طمعت فيما هو خير من الخدمة ويعودان مشيا إلى البيت، وقد انقضى النهار وأقبل المساء، ثم تبعته العاصفة. ولا يكاد الفتى يدخل مع صاحبته على أبيه وأمه وصديقيه حتى يزداد الأمر تعقيداً. الفتى لم ينبىء صاحبته بحبه، وإنما عرض عليها الخدمة، وأبوه لا يعلم إلا أن هذه الفتاة ستكون زوجاً لابنه، فهو يسألها: أأعجبك الفتى؟ فيسوء ظن الفتاة بهذا السؤال، ويكون حوار مؤلم تعزم معه الفتاة على أن تعود أدراجها، ولكن كل شيء ينجلي ويعلن الحب وتكون الخطبة.

هذا تلخيص أقل ما يوصف به أنه سخيف لا يدل على شيء مما في القصة من جمال وبراعة؛ ولكني قد قدمت هذا السخف لتستكشف أنت كيف يستطيع شاعر نابغة كجوته أن يخرج من قصة يسيرة كهذه آية فنية كهذا الكتاب الذي أضعه بين يديك. ستجد هذه البراعة في تصوير أشخاص القصة بما لهم من حياة وشعور وذكاء وخلق مما تجد عند الألمان ومن صفات أخرى تجدها في الناس جميعاً، بما تجري به ألسنتهم من حديث

ساذج ولكنه خصب كأخصب ما يكون الحديث ، فيه تصوير لحياة الطبقات الوسطى في المدن ، وفيه تجلية لهذه الحكمة الرائعة التي تسيطر على حياة الناس مهما تختلف الأجيال والأزمان . نعم وستجد هذه البراعة في هذا التصوير الخفيف الأخاذ للطبيعة الحية في المدينة ومن حولها في غير تكلف ولا بحث ظاهر ولا استقصاء للألفاظ الخلابة . نعم وستجد هذه البراعة بنوع خاص إن كنت قد قرأت الالياذة والأودسيا حين تحس التشابه بين هذين النوعين من الشعر في الوزن أولا ، وليس هذا بالشيء الذي يعنينا ، وفي الأسلوب والسذاجة بعد ذلك ، وهو الشيء الذي يجب أن نقف عنده ونلتفت إليه .

أبطال جوته كأبطال هوميروس ، فيهم سذاجة حلوة وفيهم دعة كلها عذوبة ، وفيهم على ذلك شدة فيما لا بد من الشدة فيه . يتحدث بعضهم إلى بعض فيمزجون أغراض الحياة اليومية بهذه الحكمة الشعبية الخالدة ؛ ويصورون لك أنفسهم في هذا الحديث . وهم إذا تحدثوا أحيوا من حولك كل شيء وأجروا الحركة في كل شيء . وأشركوك معهم ومع الأشياء في هذه الحركة وفي هذه الحياة . وهم لا يحبون ما نألفه نحن من الإيجاز في الحديث

والإعراض عما لا حاجة إليه ، ولكنهم يلمون بكل شيء ويفصلون كل شيء ويكشفون لك عن أشياء قيمة في هذا التفصيل الذي كنت ترى أن لا حاجة إليه.

وفق جوته من غير شك كل التوفيق. لا أقول في محاكاة هوميروس وأصحابه، بل أقول في الملاءمة بين فن هوميروس وأصحابه ، وبين الحياة الحديثة آخر القرن الثامن عشر.

أما في ألمانيا فقد فاز جوته بإعجاب عظيم حين أذاع هذه القصة. فتن بها الشعب ، ورضى عنها أكثر النقاد ، وتنكر لها بعض الحاسدين. ولكنها لم تبلغ ثلاث سنين حتى تجاوزت ألمانيا واللغة الألمانية، وإذا هي تترجم إلى الفرنسية والانجليزية والإيطالية. وتمضي بعد ذلك أعوام، وإذا هي تترجم إلى اللاتينية. ويرى جوته هذه التراجم وينظر فيها ويرى هذا الفوز ويقول في آخر حياته: إن هذه القصة قد بعثت في نفسه من الرضى ما لم تبعثه قصة أخرى من قصصه المختلفة.

فإذا انتصف القرن التاسع عشر كانت هذه القصة موضوع رسالة للدكتوراة في السوربون؛ فإذا تقدم هذا القرن

كانت هذه القصة موضوع البحث الواسع العميق في البيئات العلمية والأدبية المختلفة في أوروبا.

وينتهي القرن التاسع عشر، ويتقدم القرن الذي نحن فيه ويحتفل العالم بمرور مائة عام على وفاة جوته، ونفكر نحن في هذا الاحتفال، ثم يحال بيننا وبينه، فنتفق أنا وصديقي عوض على أن نحتفل بهذا العيد كما نستطيع.

وأي أسلوب في الاحتفال بجوته أحسن من أن يترجم عوض هذه الآية من آياته، ومن أن أنوب عنه أنا في تقديمها إلى القراء؟ وقد اشترط علي ألا أذكره بخير وأنا عند شرطه. ولكنه لن يستطيع أن يمنعني من أن أعلن راضياً مبتهجاً أنه قد استطاع في ترجمته العربية أن ينقل إلينا نقلا صحيحاً ما قصد إليه جوته في قصته هذه من السذاجة العذبة الخصبة معاً. وإذاً فلغتنا العربية قادرة على أن تسع الفنون الأدبية لجوته إذا وجد مترجمون كعوض. وإذاً فقد أستطيع بعد أن نبت عن عوض في تقديم هذا الكتاب إلى القراء أن أنوب عن القراء فأهدي إلى صديقي وصديقهم أجمل التهنئة وأصدق الشكر.

طه حسين

هرمن ودروثيه

قصيدة (ايليجيا)[1]

(١) لهذه القصيدة تاريخ لا بد من ذكره: ذلك أن جوته وشيلر كانا يكتبان قطعا شعرية إسمها إكسنيا Xenie ينتقدان بها معاصريهم ويسخران منهم. وقد رد هؤلاء النقد بمثله، وطعنوا في كثير من مؤلفات جوته. وبهذه القصيدة (وهي من نوع خاص اسمه «الايليجيا» يرد جوته على الذين انتقدوه ولاموه على تشبهه بكتاب اليونان واللاتين. ولم تكن لهذه القصيدة أولا علاقة بكتاب هرمن ودروتيه، لولا أنه في آخرها يعلن للناس كتابه الجديد، والمنحى الذي يريد أن ينحوه فيه: أن يقص قصة ألمانية عصرية على نمط قديم: على طراز شعر هوميروس. ولم تلحق هذه القصيدة بكتاب هرمن ودروتيه إلا في سنة ١٨٢١ أي بعد ظهور الكتاب بنحو ٢٥ سنة. والمتكلم في هذه القصيدة هو بالطبع جوته نفسه.

إذن لقد كان جُرماً أنْ أثار بروبرتيوس[1]

في نفسي حماساً؛ وأن قد اتخذت مارسيَال ـــ

ذلك الوقح الجرىء ـــ رفيقاً وصديقاً ...

أجل كان جرما أن صاحبت القدماء

ولم أنبذهم في مدرستهم، ورائي ظهرياً.

وأن قد رافقوني ـــ في الحياة ـــ

إلا لأتيوم راغبين طائعين[2] ..

أمِن الجرم أني جشمت النفس كل عناء

في استطلاع ما بالطبيعة وما بالفنون من حسن وإبداع؟

---

(١) بروبرثيوس Propertius أكبر شعراء اللاتين الذين نظموا القصائد التي من نوع ايلجيا Elegia وليس معناها هنا مرثية بل نوع من الشعر من وزن وشكل خاص. وقد اقتدى جوته بهذا الشاعر في كتابة القصائد الرومانية التي ألفها بعد عودته من روما ـــ أما مارسيال Martial فهو من أشهر شعراء اللاتين في النوع المسمى ايبجرام Epigram أي حكمة أو مثل وتفيد أحياناً معنى مقطوعة شعرية من غير نظر إلى الموضوع. وقد اتخذه جوته مثالا في كتابه حكم البندقية Venetianische Epigramme وقد هوجم جوته من أجل هاتين المنظومتين وإلى هذا يشير هنا.

(٢) إشارة إلى رحلته إلى إيطاليا، حيث كانت كتب القدماء مرشده الأول.

وأن لست مِمَّن تخدعهم الأسماء أو تقيِّدهم الأوضاع؟
وهل أجرمت إذ صَمَدْت لدوافع الحياة المُلِحَّة،
فلم تبدِّل من طبعي ولا من شيَمي؛
وإذ هتكت برقع الرياء الشائن باحتقار وازدراء؟

○

فيارية الفن[1]! إن هذه الصفات
هي غرسك الذي غرسته في نفسي بجد ونشاط
قد جعلها الغوغاء وصمات وهنات،
لأنهم يحسبونني كأحدهم
بل إن الأخيار أنفسهم — على ما بهم من صفاء ووفاء —
يريدون مني أن أسلك غير سنتي.
لكنني، أيتها الربة! لن أأتمر إلا بأمرك.

---

(١) يخاطب إلهة الفن «Muse» على طريقة الشعراء في الشعر الحماسي.

فأنت وحدك التي ما زلتِ تبعثين في صدري .
قوة الشباب ، إذا ما أخلق جلبابه .
وقد عاهدتني على هذا مدى الحياة ..
فيها أيتها الربة لِتَشملْني اليوم عنايتُك المقدسة .
أضعافاً مضاعفة . فقد أصبح الرأس .
وما تَزِينهُ الذوائب الجميلة كما عهدناه من قبل .
فما أحوجه اليوم إلى إكليل .
يخدع به الناس ويخدع به نفسه !
وقديماً كان قيصر[1] نفسه .
يلبس الإكليل مُكْرها لا مختارا .
فإن كان لي عندك ، أيتها الربة !
غُصْنٌ من الغار ، فذريه اليوم على شجرته .
يزدد خُضرةً ونَضرةً ،
عسى أن يحين يومٌ فأصير به جديرا .

---

(١) قيصر : هو يوليوس قيصر ، وقد سمح له بلبس الاكليل دائما ليخفي به صلعه .

عمّا قليل يأتي المشيب،
فينثر زنبقه الفضي خلال الذوائب السوداء.
فلا تبخلي عليَّ الآن بإكليل من الورد الجنى،
يتوج سعادتي المنزلية[1]
وإني لسعيد إذْ أرى الزوجة تشعل النار.
في موقد نظيف، من أجل طهي الطعام.
وإذ أرى الصبي يلقي بالأغصان فيها،
وهو يلهو ويلعب...
فاملئي أيتها الربة أقداحنا بالمدام!
ويا أصدقائي الذين يعشقون السَّمَر.

---

(١) هنا يتكلم جوته بصراحة عن سعادته العائلية. وكان هذا عقب اتصاله بكرستيانا فولبيوس وقد ولدت له ابنه أغسطس وهو المذكور بعد. ويدعوها جوته في البيت التالي زوجه. ومن الكتاب من يرى أن كتاب هرمن ودروتيه عبارة عن نشيد جليل في وصف السعادة المنزلية والحياة الزوجية. وفي هذه السطور يقول جوته ــ متواضعاً ــ إنه لم يبلغ في الشعر بعد منزلة يستحق فيها إكليل الغار. ولكنه بلغ في سعادته المنزلية درجة عليا يستحق فيها إكليلا من الورد.

والذين هم على شاكلتي ومذهبي !
أهلاً بكم إن لكم عندي أيضا أكاليل !
فتعالوا نشربْ أولاً نخب ذلك الرجل الجرىء،
الذي خلَّصنَا أخيراً من هوميروس[1].
خلَّصنا من ذلك الاسم العظيم الهائل،
لِكَيْ يَسْلُكَ بنا طريقاً أجلَّ وأعظم.
ومن ذا الذي يَجْرُؤ على التطلّع لمرتبة الآلهة؟
بل إلى مرتبة إلهٍ واحد؟
بيد أني، رغم هذا، أرى حَسَناً ــ وإن جئت أخيرا ــ
أن أكون أحَدَ أولئك الهومريين...
فيا أخِلاَّيَ! أنصتوا إلى هذا القريض الجديد؛

---

(١) يشير إلى الكاتب الألماني ولف Wolf وهو من معاصري جوته وكان بينهما معرفة ومودة. وهو أول من قال بأن القصائد المنسوبة إلى هوميروس (الالياذة والاوذيسة) ليست من تأليف رجل واحد. بل من وضع كثيرين أطلق عليهم اسم الهومريين (Homeriden). وهم الذين يشير إليهم جوته هنا باسم إلهة، ويود لو أتيح له أن يقلدهم.

وأتْرِعوا الأقداح بالراح؛
لَعَلَّ في الصهباءِ والحبِّ والصَّداقة.
ما يحملكم على التسامح والإغضاء.
إني سأسوق أمامكم صُوَراً لحياة الألمان أنفسهم
في دارٍ تجمع بين البساطة والهدوء.
حيث الإنسان يتعلم من الطبيعة
كيف يغدو إنسانا كاملا
وليكن رفيقنا اليوم روحُ ذلك الشاعر.
الذي سحرنا بيانه، إذ يَقُصُّ علينا قصة (لويزا)
وكيف عقِد لها بسرعة على الفتى الجدير بها[1]
وكذلك سأسوق أمام أعينكم
صوراً أليمةً لذلكم العهد الحزين[2].
وأريكم كيف يخرج الجنس الباسل الطاهر

---

(١) قصة لويزا للشاعر الألماني Voss تشبه إلى حد ما قصة هرمن ودروتيه. ومنها اقتبس جوته موضوع هذا الكتاب.

(٢) أي عهد الثورة الفرنسية.

وقد عقِد له أخيراً لواء النصر..
ولئن وفقْت لاستدرار الدمع من مآقيكم؛
ولئن أخذتكم نشوة الطرب لما أنشده الآن
فتعالوْا عانقوني عناق المودة الخالصة.
وأسنِدوا صدري إلى صدوركم.
إن حديثنا اليوم حديثُ عقلٍ وحكمة؛
فلقد ألقى علينا القرن[1] في نهايته
دروس الحكمة الغالية.
بما أجْهدَنا به القضاء، وابتلانا به القدر.
إن في قلبكم من السرور والطرب
ما يعلمكم القناعة والرضى بالقليل.
فلننظر، إذَنْ، إلى تلكم الأيام الماضية:
نظرَة طمأنينةٍ وارتياحٍ.

---

(١) أي القرن الثامن عشر. وفي نهايته كتب هذا الكتاب. والدروس المشار إليها هي الثورة الفرنسية في كل أطوارها.

ولئن عنينا كثيراً بمعرفة الرجال والشعوب
فلنتعلم، أيضاً، ما انطوت عليه الجوانح.
وما استقرَّ في أعماق النفوس.
يكُنْ لنَا في هذا من السرور أوفى نصيب.

النشيد الأول

كاليوبيا[1] KALLIOPE

(الهة الشعر الحماسي)

(١) الكتاب مكون من تسعة أناشيد. وكل نشيد عنوانه اسم من أسماء آلهات الفنون Muse كما فعل هردروت: كأنما المتكلم في كل نشيد هو الموسا نفسها. وإلهة النشيد الأول هي إلهة الشعر الحماسي: أو شعر الملاحم Epos. لأن الكتاب هو من هذا الطراز. ولكل نشيد عنوان ثان يدل على موضوعه وهو هنا صروف القضاء وعطف القلوب. لأن القضاء نزل بكثير من الهاربين اللاجئين في عهد الثورة الفرنسية. فهاجروا إلى نهر الرين فعطفت عليهم قلوب الناس كما سنرى في النشيد.

صروف القضاء وعطف القلوب

«لعمري ما رأيت هذا الميدان ولا هذه الطرق خلاءً قفرا كما أراها اليوم. وكأني بها قد كُنِست كنسا، أو بسط عليها الموت جناحيه. فلا أكاد أبصر من أهل المدينة جميعاً خمسين رجلا.

«إن حب الاستطلاع لذو سلطان على النفوس! فلقد هُرِع الناس وتدافعوا من كل صَوب، مسارعين إلى رؤية ذلك القطار الحزين من اللاجئين التعساء.

«إن بيننا وبين ذلك الجسر الذي سيسلكونه سير ساعة من الزمان، ولا بد بعد ذلك من الانحدار والمشي وسط الغبار وفي حرّ الظهيرة... ولن تراني مُخلّياً مكاني من أجل رؤية ذلك

الشقاء، الذي ترزح تحت عبئه تلك الجماعات الهاربة؛ وليس بيدها سوى قليل مِمَّا استطاعت إنقاذَه حين أكرهت على ترك أوطانها الجميلة وراء الرين والالتجاء إلى ديارنا[1]، حيث يطوفون بأرجاء هذا الوادي الخصيب، وبين منعطفَات نهرنا الفياض.

«ولعمري لقد أحسنت صنعاً أيتها الزوجة، إذ هزّتك الأريحيَّة، فبعثتِ ابننا لكي يحمل إلى هؤلاء البائسين بعض الملابس القديمة وشيئاً من الطعام والشراب. فإن العطاء فرض على ذوي اليسار.

«وإني لشديد الإعجاب بفتانا إذ أراه يسوق المركبة بمهارة فائقة، وقد أخضع الجياد، يسيرها كيفما شاء. وتعجبني مركبتنا الجديدة، فهي حقيقةً على شيءٍ كثير من الحسن. ومن السهل أن يجلس بها أربعة أشخاص دون مشقة أو عناء، عدا السائق الذي يجلس على مقعده الخاص.

---

(١) هذه الجماهير جاءت من الناحية الغربية لنهر الرين: أي من البلاد الألمانية المتاخمة لحدود فرنسا مثل الألزالس... وهؤلاء الألمان حين أرادوا الفرار مما سببه لهم الاحتلال الفرنسي من الشقاء اضطروا لأن يجتازوا نهر الرين إلى الناحية الشرقية (الناحية اليمنى) حيث المدينة الصغيرة التي تدور فيها حوادث هذا الكتاب.

وهو اليوم يسوقها منفرداً لم يصاحبه أحد.. أرأيتِ كيف دار بها حول ناصية الطريق بسهولة تامة؟»

هكذا كان صاحب فندق «الأسد الذهبي» يتحدث إلى زوجه وهو جالس في مدخل داره مستريحاً مطمئنا.

فقالت زوجه، وقد أوتيت شيئاً كثيراً من العقل والذكاء: «إني أيها الوالد[1] لست بالتي تهبُ ما عندها من قديم الثياب والأقمشة عن طيب خاطر؛ فإنها أشياء تفي بشتى الأغراض والحاجات. وليس من السهل شراؤها بالمال حين نغدو في حاجة إليها. لكنني اليوم لم أتردد في بذل مقتنيات حسنة من الألبسة والأغطية. فلقد سمعت أن فيهم أطفالا صغاراً وشيوخاً فانين يمشون عراة أو شبه عراة.

«فهل أنت صافحٌ عني إذ لم أحجم عن الإغارة حتى على خزانة ثيابك أنت. ومما أخذته منها جُبَّة نومك[2] ذات الأزهار

---

(١) عبارة مألوفة عند الأوروبيين في خطاب المرأة لزوجها متى أصبح والداً وكذلك الأب ينادي زوجه بيا أم!

(٢) ترجمة لكلمة Schlafrock وهي المعروفة بالروب دي شامبر.

البديعة المطرَّزة بالحرير الهندي على قماش من القطن الثمين. ومُبطنةٌ بأحسن الصوف وأغلاه. ولم أتردد في بذلها لهؤلاء البائسين. لأنها كما تعلم قد غدت قديمة مهلهلة ومن طراز عتيق.» .

فتبسم صاحب الفندق، وقال: «إني ليسوءني فقد هذه الجبة القطنية القديمة. فإنها بضاعة شرقية أصيلة، ولا يتسنى وجود مثلها اليوم. على أني الآن لم أعد أرتديها. فقد أصبحنا في زمان يُراد منا فيه أن نلبس دائما العباءة والكساء البولوني وأن نحتذي النعال الطويلة دون القصيرة. وحُرِّم علينا حتى لبس القلانس الخفيفة» .

فقالت زوجه: «ها قد عاد أدراجه بعض أولئك الذين ذهبوا لرؤية الوافدين. فلعل المشهد قد انتهى. أنظر إلى أحذيتهم كيف تراكم عليها التراب. وإلى وجوههم كيف تلتهب لما عانوه في هذا الحر الشديد. وها هم أولاء يتناول كل منهم منديله ليمسح به عرقه المتصبب، ولو أني مكانهم لما أنهكت قواي، بعد ذلك المشهد، بكل هذا العدو والإسراع. ولعمري إنهم سيشبعوننا اليوم قصصا وأحاديث» .

فسكت الوالد مَلِيّا. ثم قال في شيء من التأني والتأكيد:

«إنا بعيدو العهد بمثل هذا الهواء الصحو الجميل في زمن الحصاد. وغداً لا بد لنا أن نشرع في جني الثمار، كما حصدنا البرسيم من قبل دون أن تفسده الأمطار.. ما أشد صفاء السماء!، إن العين لا ترى سحابة واحدة تشوبه. وتهب علينا من الشرق صبا عليلة باردة تنعش الروح.

إن هذا الهواء من الطراز الثابت الذي لا يتغير بسرعة[1] وهاك القمح قد نضجت سنابله وأمعنت في النضوج. فغداً نبدأ حصاد هذه الغلّة الوافية الوافرة».

في أثناء كلامه هذا كانت جماهير الرجال والنساء تتزايد وكلهم يخترق الميدان قاصداً إلى داره. وكان يُرى في جملة العائدين جارهم التاجر الغني. أكبر تجار البلدة وأعظمهم شأنا. وقد دخل الميدان من الناحية الأخرى ومعه بناته في مركبة مفتوحة من الطراز الذي يصنع في مدينة لاندو.

وهكذا عادت إلى الطرقات الحياة واشتدت بها الحركة.

---

(١) إن صاحب الفندق كثير التفاؤل لأن الطقس يتغير فعلا قبل انتهاء اليوم.

لأن المدينة، على صغرها، كثيرة الأهل والسكان. وبها كثير من الصناعات والحرف الناجحة.

كان الزوج والزوجة جالسين في مدخل الفندق، ينظران إلى هذه الجموع، يموج بعضها في بعض، ويتسليان بما يشاهدان أمامهما، ويتبادلان العبارات والإشارات. إلى أن قالت الزوجة الكريمة: أنظر! ها هو ذا القس قد عاد وهو مُيَمِّمٌ شطرنا. وهذا جارنا الصيدلي قد رجع أيضا. وسيقصان علينا من غير شك كل ما رأياه هناك مما لا تُسر لمرآه العيون.

وحقا وصل الصديقان إلى الفندق، وحيَّيا الزوجين أحسن التحية. ثم جلسا على دكتين من الخشب في الدهليز. وبعد أن نفضا الغبار عن أقدامهما، وتَرَوَّح كل منهما بمنديله، وتبادل الجميع عبارات التحية والسلام، أخذ الصيدلي يتكلم في شيء من الغيظ والكمد فقال: «إني لأعجب كل العجب لهؤلاء الناس — وهم في هذا جميعا سواء — إذ يحلو لهم أن يقفوا ويحملقوا لما يصيب جارهم من مكروه، ولما ينزل به من مطب، فتراهم يسارعون ويتدافعون، لكي ينظروا النيران يندلع لهيبها وتجتاح ما حولها.. ويبادرون إلى رؤية المجرم المسكين حين يساق

إلى الموت . واليوم نراهم جميعا قد انطلقوا ليشاهدوا ما حل بأولئك الطريدين من شقاء وما يعانون من آلام . وقلما يفكر أحدهم أن قد يحل به ما ألم بأولئك التعساء ، إن عاجلا أو آجلا . اللهم إني أجد في هذا خفة لا تغتفر ، وإن كانت مغروسةً في طباع البشر . » .

فتكلم القس وكان رجلا ذكي العقل ، كريم النفس ، زينةَ أهل المدينة جميعا ؛ وهو بعد أدنى إلى الشباب وإن كملت رجولته . وكان أدرى من صاحبه بالحياة ، وأعرف بما يريده السامعان من الأنباء . ناهيك أنه رجل قد طالع الكتب المقدسة وتعمق في درسها ؛ وامتلأ صدره بما حوته من الآيات الغالية ، التي تكشف عما تكنّه الصدور من الأسرار وما تضمره المقادير لبني الإنسان . وكذلك كان ملمًّا بأحسن ما في الكتب الدنيوية .

وتكلم القسيس فقال : «لست أود أن ألوم بني الإنسان من أجل أعمال ضررها يسير ، تُمليها الغريزة ، ويدفعهم إليها الطبع . فإن غرائز الناس ، التي تقودهم على رغمهم ، وتتحكم في أهوائهم فتسيرهم كما تشاء ، تلك الغرائز كثيرا ما تصيب النجاح والتوفيق حيث يفشل العقل والتدبير ، وتقصّر الحكمة والذكاء . .

قل لي بربك إذا كان شغف الإنسان بالاستطلاع لا يجذبه بتلك القوة الساحرة، فأنى له أن يدرك ما بالكون من حسن النظام وجمال التنسيق؟ فالإنسان في مبتدأ أمره شِغفٌ بالبحث عن كل جديد. بعد هذا يسعى وراء النافع المفيد. وأخيرا تلقاه يطلب الخير وينشد الصالح من الأمور، لكي يرتفع بهذا شأنه ويعلو به ذكره. فهو في شبابه ترافقه الخفة والرعونة وتلازمانه أينما سار، وتخفيان عن عينه الأخطار التي قد تعترض طريقه. وإذا حلت به كارثة أو نزلت به ملمة فسُرعان ما تمحوان آثارها وتزيلان آلامها. ولِنعم الرجل الذي يستطيع أن يولّد من رعونة الشباب هذه عقلاً رصينا يجد ويدأب في السراء والضراء على حد سواء، فيفعل الخير ويُعلي من شأنه، ويصلح الفاسد ويزيل الشرور».

وكانت السيدة الفاضلة قد عيل صبرها فقالت تخاطب الرجلين: «لكن ألا تحدثاننا بما رأيتما اليوم؟ فبودي لو أحطت بهذا علما».

فتكلم الصيدلي جارهم في جِدٍ وهدوء، فقال: «هيهات أن يعود إلى قلبي السرور بكل هذه السرعة بعد الذي شاهدته اليوم. ومن ذا الذي يستطيع أن يصف لكم ذلك الشقاء ذا

الأشكال والألوان؟.. لقد لاح لنا من بعيد مُثار النقع، ونحن لم ننحدر بعد إلى السهوب. وكان جموع الطريدين قد أخذت تصعد ثم تنحدر من كثيب إلى كثيب. فلم يكن من المستطاع أن تتبيَّنَ الأعين من أمرهم شيئاً. ولما بلغنا الطريق التي تعترض الوادي وتصل بين جانبيه، رأينا الناس ما بين راكب وراجل، يتزاحمون ويتدافعون. وأبصرنا أيضاً ـــ ويا للأسف ـــ بعض أولئك التعساء، وقد أخذوا يمرون بنا، فاستطعنا أن نقرأ في وجوههم ما يعانيه الطريد الشريد من مرارة وألم، وما يحسه، رغم هذا، من سرور وفرح، إذ تسنى له أن ينقذ حياته من بين مخالب المنون. أجل، لقد كان من المؤلم حقا رؤية تلك الأمتعة العديدة من كل نافع مفيد، مما نراه عادة في كل منزل عُني أصحابه بإعداده وتنسيقه. فيجعلون لكل متاع مكانه الخاص به، تتناوله الأيدي بسهولة كلما دعت إليه حاجة ثم ترده إلى مكانه.. والآن كنا نرى كل تلك الأمتعة، وقد اختلطت وامتزج بعضها ببعض، بعد أن انتُزعت من مواضعها انتزاعا، وحمِّلت على عجل فوق مطايا وركائب من كل نوع ومن كل طراز. فكنت ترى الغِربال وأغطية الصوف ملقاة فوق خزانة الثياب، والفراش الوثير وسط وعاء

العجين، وغطاء المائدة ملقى على المرآة.. ولقد مارسوا من غير شك ذلك الفزع الذي قاسينا شره نحن منذ عشرين عاما في أثناء الحريق الهائل، إذ طاشت بنا الأحلام، فأخذ الناس يجمعون الغث من الأشياء ويتركون الثمين من خلفهم. وكذلك شاهدت اليوم أولئك المشرَّدين وقد احتقبوا من تافه الأمتعة وحقيرها. ما أضنوا به مطاياهم ودوابهم: فمن فرش بالية، إلى براميل قديمة، إلى بيتٍ للطيور أو قفص للعصافير. كلّ هذا وأمثاله قد جمعوه واحتزموه بدقة وعناية، لكن من غير عقل ولا تدبر. ولكم رأينا اليوم مِنْ طفل صغير أو امرأة ضعيفة، تلهث إعياءً ونصبا، وهي تنوء بما تحمله أو تجره من جُوالق أو سفط أو باطية، كلها مملوء مفعم بأمتعة ليس فيها نفع ولا غَناء.. فما أشد حرص الإنسان حتى على الحقير التافه مما ملكت يمينه.

وهكذا كانت جماهير الطريدين تسير في طريقها، وقد ثار من فوقها الغبار، وهي تمشي على غير هدى، وتتدافع من غير نظام: هذا تِعبَت دوابه ويريد أن يسير الهوينى؛ وذلك عَجِلٌ يريد أن يسرع في خطاه. ههنا تسمع صياح نساء وأطفال قد آدهن الزحام. وهناك تسمع خُوار الدواب وعواء الكلاب. وهنالك

تسمع عويل الشيوخ والمرضى، وقد أجلس كل منهم على ظهر مركبة قد حملت أقصى ما تستطيع أن تحمله، فهي تهزه هزّاً عنيفا.

يا ليت هذا كله ما يكابدون. فإن الزحام الشديد كثيرا ما يميل بالعجلات عن الطريق ويدفع بها إلى حافة الجسر. فتهوى المركبة إلى الخندق، ثم تنقلب بما تحمله من متاع ومن ناس، ولحسن الحظ قد سقط الناس بعيدا وسط الحقول، وأما الصناديق الثقيلة فهوت إلى جانب المركبة. ولقد خُيِّل إلى من شاهد هؤلاء الناس عند سقوطهم أَنْ سيراهم وقد حطمتهم تلك الصناديق والخزائن، بل سحقتهم سحقاً.. على كل حال لقد تحطمت المركبة، وبقي أصحابها حيارى ما لهم من معين. فقد تركهم الآخرون وانطلقوا في سبيلهم، يدفعهم التَّيار دفعاً، فلا يعنيهم سوى أ[illegible] أنفسهم. وقد أسرعنا نحو هؤلاء المرضى والشيوخ الهرمين الذين برح بهم السقام، بحيث لو كانوا في ديارهم وعلى فراشهم لكفاهم ما يعانون من ألمٍ ووصب. فكيف بهم الآن وكلهم طريح الثرى مضعضع الجسم، يئن ويتأوه، وقد أحرق حر الشمس محياه، وخنقه الغبار المتطاير؟».

فقال صاحب البيت، وقد أثار الحديث في قلبه عاطفة الرحمة: «ليت ولدي هرمن يلقاهم، فينعشهم ويكسوهَم. أما أنا فما أحسبني أرغب في رؤيتهم، لأن منظر الشقاء يؤلمني. ولقد تأثّرنا حينما سمعنا الأنباء الأولى عما يعانيه أولئك البائسون، فبادرنا مسرعين بإرسال شيء مما فضل عن حاجتنا، مساعدة للقليل منهم، وهكذا استراح ضميرنا نوعاً ما.

والآن فلنترك ذكر تلك المشاهد الأليمة، فإنها سرعان ما تبعث الرعب في القلوب، فتملؤها بهموم وأشجانٍ هي شرٌّ من الخطب الذي أثارها في النفس.

فهلمّ بنا إلى الحجرة الخلفية الصغيرة، ذات الهواء البارد العليل، فهي ليست معرضة لأشعة الشمس، والهواء الحار لا ينفذ إليها بفضل هذه الجدران السميكة. وهنالك فلتحضر الأم العزيزة لكل منا كأساً من نبيذ العام الثالث والثمانين[1]، وبهذه الكأس فلننفض عنا غبار الهموم. أما هذا الدهليز حيث نحن

---

(١) أي الذي صنع من عنب سنة ١٧٨٣. وكانت سنة اشتهرت بجودة عنبها وجودة الخمر التي صنعت من ذلك العنب. ووادي الرين من أشهر أقاليم أوروبا إنتاجاً للخمر.

الآن ، فلا يصلح للشراب ، إذ سرعان ما يحدق الذباب بأقداح الراح» .

فانطلقوا جميعاً إلى تلك الحجرة فرحين بتلك الكأس المنعشة. وهنالك أحضرت لهم الأم النبيذ الأبيض الصافي في قارورة مصقولة لامعة على صينية من الصفيح المجلوّ المضيء. وقد صفت فوقها أقداح من الزجاج الأخضر: وهي أقداح نبيذ الرين الحقيقية. وجلس الأصدقاء الثلاثة حول مائدة مستديرة سمراء اللون ، قد أجيد صقلها ، ذات قوائم ضخمة متينة.

ولم تكد الأقداح تُملأ حتى رفع صاحب الدار والقسيس كأسيهما ، وتدافع الكأسان برفق.. بيد أن ثالثهم قبض على كأسيه مطرقاً مفكراً، ولم يرفعها عن المائدة. فأخذ صاحب البيت يستحثه بعبارة رقيقة. وقال: «هلم أيها الجار العزيز فاشرب معنا! ألا ترى أن الله جل شأنه ، قد وقانا السوء برحمته وكرمه إلى اليوم ، وأخاله سيرعانا في مستقبل أيامنا أيضاً؟ ومن يستطيع أن ينكر أنه تعالى منذ ابتلانا بذلك الحريق المفظع ، فأنزل بنا ذلك العقاب الصارم، لم يزل بعد ذلك يغمرنا بالسعادة ويشملنا

بالرعاية والعناية، كما يعنى المرء ويحرص على إنسان عينه وهو أعز الجوارح عليه.. بعد هذا كله أيحرمنا، سبحانه! هذه الحماية والمعونة؟ على أن قوته تعالى وسلطانه إنما يبدوان للأعين حين تنزل الشدائد وتحدق الأخطار.. أيمكن أنه، وهو الذي أقام صرح هذه المدينة الزاهرة، وشيدها بأيدي بنيها المجدين، بعد أن كانت رماداً وأنقاضاً، ثم أسبغ عليها فضله وبركته، يعود اليوم فينزل بها الدمار والخراب، ويقضي على كل تلك الجهود؟».

فقال القسيس بصوت هادىء رقيق وقد سره ما سمعه: «تمسك بأهداب الإيمان، واعتصم، ما استطعت، بهذه الآراء؛ فبمثلها تغدو في أوقات السعادة رزيناً مطمئناً، وهي في زمن الشقاء نعم السلوى والعزاء، ونعم الباعث للأمل والرجاء!».

فأجاب رب البيت بعبارات تبدو فيها الرجولة والحكمة فقال: «لكم كنت أحيي نهر الرين وتيارَه المتدفق، كلما عدت إليه بعد أسفاري ورحلاتي. ولكنني قلما خطر لي أن ضفافه الجميلة ستصبح يوماً بمثابة السد المنيع، لندرأ به عنا الفرنسيين. وأن سيغدو مجراه الفسيح خندقاً ليقينا ويدفع الشر عنا. فانظر

كيف تحفظنا الطبيعة، وكيف يحمينا الألمان البواسل، وكيف يكلؤنا الإله جل جلاله! فأي أحمق يجحد أو يكفر؟ إن المحاربين قد سئموا القتال وأضنتهم الحروب، وكل شيء يدل على اقتراب الصلح والسلم. ومتى احتفل الناس بالصلح، الذي يشتهيه الجميع منذ زمن، فإني أرجو أن نحتفل به نحن أيضاً في كنيستنا، فيمتزج صوت النواقيس بأنغام الأرغن، وقراءة صلوات الابتهاج بصوت البوق.

وبودي يا سيدي القسيس لو أن ولدي هرمن يعُقد له في ذلك اليوم على العروس. فيتقدم بها بين يديك إلى المذبح. فيكون ذلك العيد السعيد، الذي تحتفل به البلاد جميعا، عيدا لسعادتنا المنزلية في مستقبل الأيام.

وإني ليَحْزُنني أن أرى هذا الشاب ــ على جده ونشاطه في أعماله ــ ساكنا رزينا، كثير الخجل والحياء، زاهدا في رؤية الناس والتحدث إليهم، راغبا حتى عن صحبة الغيد، وعن الرقص وهو قبلة أنظار الشباب».

كان الوالد يتكلم على هذا النحو، ثم أمسك عن الكلام

فجأة. وأخذ يصغي: فإذا صوت سنابك الخيل يقترب ويزداد جلاء ووضوحا، والضوضاء آخذة في التزايد تدريجيا؛ ثم سُمِعت عجلات مركبة مسرعة تجري بصوت كأنه قصف الرعود ووقفت فجأة لدى باب الدار.

٢

النشيد الثاني

تربسيكورا[1] TERPSICHORE

(الهة الرقص)

(١) الموسا التي تنشد هذا النشيد هي إلهة فن الرقص. وفي الحق أن لا مناسبة بينها وبين ما في هذا الفصل. ولا يعرف لماذا اختارها جوت دون غيرها عند التكلم عن هرمن وهو الذي ينفر من الرقص. على كل حال ما دامت هناك تسعة أناشيد في الكتاب، وفي الخرافات تسع ربات للفن، فلا بد أن تتولى كل واحدة الإشراف على أحد هذه الأناشيد. ولا بد في بعض الأحيان ألا يكون هنالك تطابق بين ما هو معروف عن ربة الفن في العرف وبين ما هو منسوب لها هنا

هرمن

دخل الابن إلى الحجرة، فإذا هو فتى حسن الصورة، طويل القامة.. تلقَّاه القسيس بنظرات حادة نافذة، متأملا قوامَه، وناقدا حركاته بعين الباحث الخبير، الذي تخترق فِراسته الحجُب، ويستنبط الأسرار من غير عناء. وقال له بلهجة المخلص الأمين: «إنك لتعودُ إلينا إنسانا غير الذي عهدناه وعرفناه. وما أحسبني رأيتك يوما ووجهك ممتلىء بشرا وسرورا، وفي ناظريك هذا البريق الذي أبصره الساعة.. إنك تقبل علينا فرحا طروبا، لأنك من غير شك قد قسمت الهدايا بين أولئك البائسين، فدعوا لك أطيب الدعوات».

فأجاب الفتى بألفاظ فيها جدٌّ وهدوء: «لست أدري هل فعلت شيئا أحمد عليه؟ غير أني في كل ما عملت، لم أفعل غير الذي أملاه علي قلبي. وهاأنذا أقص عليكم القصص كله:

«إنك يا أماه قضيت زمنا غير قصير في جمع الأشياء وفي اختيارها. فلم تتهيأ الحقيبة إلا بعد لأي. وكذلك النبيذ والجعة قد استغرق إعدادهما زمنا غير قليل. وحين انطلقت أخيرا من المنزل، وسرت في الطريق، لقيت كثيرا من الناس راجعين أدراجهم بنسائهم وأطفالهم، لأن جماهير اللاجئين كانوا قد ابتعدوا، فلما أدركت هذا الأمر، ثنيت أعِنّة الخيل، ووجهتها بسرعة تلقاء القرية، وقد أُبلغت أنهم سيبيتون بها ليلتهم.

«وبينما أنا أعدو بالمركبة في الطريق الجديد، إذ أدهشني منظر مركبة ذات قضبان متينة، يجرها ثوران من أشد الثيرة قوة وأضخمها جسما، وإلى جانبهما فتاة تمشي بخطًى ثابتة، وفي كفها عصا طويلة، وهي تقود هاتين الدابتين، على ما بهما من بأس وقوة، بحنكة وبمهارة: طورا تدفعهما إلى الأمام، وتارة تردهما إلى الوراء.

«وحينما أبصرتني اقتربت من جوادَي وقالت: «لم نكن

دائما حليفي الشقاء كما ترانا الآن في طريقنا هذا. وما اعتدت يوما أن أسأل الغريب عُرفا أو ألتمس منه صدقة. والناس قلما تهب عن رِضى، بل لكي تتخلص من لجاجة السائل. أما اليوم فتدفعني الحاجة إلى الكلام: هنا قد اضطجعت على الحطب عقيلة رجل من ذوي اليسار، لم أستطع إلا بشق النفس أن أنجو بها، على هذه المركبة وبهذين الثورين، وقد جاءها المخاض، وبعد ذلك وضعت طفلها، فلم نلحق بالآخرين إلا بعد حين. باتت وليس بها من الحياة إلا الذماء، وبين ذراعيها طفلها الرضيع، تحتضنه وهو عريان؛ وهيهات أن يستطيع أقاربنا أن يمدوا إلينا اليوم يد المساعدة؛ ولئن كانوا سبقونا إلى تلك القرية، حيث نبغي المبيت ليلتنا هذه، فإني أخشى أن يرتحلوا عنها قبل أن نصل إليها. فإن كان لديك شيء من كتّانٍ ليست لك به حاجة، وكنت من أهل هذا الحي، فلا تبخل به على البائسين».

«عندما نطقت بهذه الكلمات، رفعت النُّفَساء وجهها الشاحب من بين الحطب اليابس، وجعلت تنظر إلي؛ فقلت للفتاة: «إن الصالحين من بني الإنسان كثيراً ما توحي إليهم روح سماوية، فيحسون ما ألم بإخوانهم من متربة وما نزل بهم من

ضيق؛ وكذلك أمي العزيزة كأنما أُلهمت ما أنتما فيه من عناء، فأعطتني هذه الحزمة، وبها كل ما يسد حاجة ذلك الطفل العاري». ثم حللت عقدة الحبل وناولتها جبة الوالد، وشيئا من الثياب والقماش. فشكرت لي صنيعي، وقالت ووجهها يفيض سرورا: «ألا إن السعداء لا يدركون أنه لم تزل في العالم معجزات تقع. أما في وسط الشقاء فإن الإنسان يحس يد الله وبنانه القادرة، حين تهدي الصالحين إلى صالح الأعمال. ألا فليسبغ عليك النعمة التي أسبغها علينا الآن بيديك!».

«ولقد رأيت النفساء وهي فرحة تلمس بيديها الثياب المختلفة، كأنما سرها على الخصوص ملمس الصوف في جُبة النوم. ثم قالت لها الفتاة: «لنسرع الآن إلى تلك القرية، حيث تستريح الجماعة وتقضي ليلتها، ومتى بلغناها فسأبادر بتدارك كل ما يحتاجه الطفل، وكل ما يلزمنا». ثم أقرأتني السلام، وبالغت في شكري على صنيعي، ثم دفعت الثورين، فانطلقت المركبة.

«أما أنا فتريثت قليلا، وحبست الجوادين عن السير برهة، فقد جعلت أُحس في قلبي نزاعا، وجعلت أتساءل: أأنطلق إلى القرية مسرعا، وهنالك أقسم ما معي من الزاد بين

سائر الناس، أم أكتفي بأن أعطيه كله لتلكم الفتاة، لتتولى توزيعه بينهم، بما أوتيته من حكمة وعلم؟ ولم يطل ترددي، بل تبعت الفتاة على مهل، ولحقت بها بعد قليل، وقلت لها مصارحاً: «أيتها الفتاة الصالحة! إن الذي أعطتنيه الوالدة ليس قاصرا على الثياب التي تستر الجسد العاري، بل أضافت إليها زادا وشرابا كثيرا، ولديَّ منه في داخل المركبة شيء ليس بالقليل. وقد صحت رغبتي في أن أضع بين يديك هذه الهبات أيضا، ولعل هذه هي خير وسيلة للقيام بما عهد إلي. فأنت بلا شك تتولين تقسيمها بعقل وتدبير، أما أنا فيكون اعتمادي على محض الصدفة».

«فأجابت الفتاة قائلة: «سأتولى توزيع هباتك بأمانة، ويجب أن ينعم بها من هم أشد احتياجا إليها». وعند ذلك بادرت بفتح صندوق المركبة فأخرجت منه تلك القطع الكبرى من لحم الخنزير ثم الخبز فقناني النبيذ والجعة، حتى لم يبق لدي شيء. وما أشد شوقي لأن أعطيها أكثر مما أعطيت لولا أن نفذ ما في الصندوق.

«وقد وضعت الفتاة تلك الهدايا جميعا عند أقدام

المريضة، وربطتها ربطا محكما، ثم مضت في سبيلها. أما أنا فسقت الجوادين، راجعا أدراجي إلى البلدة».

وعندما أتم هرمن حديثه، أخذ الجار الثرثار يتكلم فقال: «سعيد لعمري في هذه الأيام: زمن التشرد والاضطراب، سعيد جدا من يعيش في داره فريداً وحيداً، لا زوجه تفزع إليه ولا ولد. ولهذا أراني اليوم سعيدا، ولا أعدِل بحالي هذه شيئا إذ لست أدعي والدا؛ وما لي من طفل أرعاه، أو زوج أعنى بأمرها.

ولقد كنت غَيْرَ مرة أتوهم الهرب، فأجمع الغالي والثمين من المتاع؛ من نقود مدَّخرَة ومن حُليّ خلفتها أُمّي البرَّة رحمها الله! ولم أُفرّط في شيء منها حتى الساعة، لكنني وجدت أن لا مفر من ترك الشيء الكثير مما لا يسهل الحصول عليه فيما بعد. ولقد يعز عليّ أن أدع ورائي تلك الأعشاب والجذور، وإن لم تكن بالشيء القَيِّم، فقد بذلت في جمعها مجهودا غير قليل، بعد هذا إذا بقي مساعدي من ورائي، فإن في هذا ما يعزيني على هجري لمنزلي. ومتى نجوت بنقودي وبجسدي فقد أنقذت كل شيء، وما أسهل النجاة على الرجل الوحيد!».

فقال له هرمن مؤكدا: «ما أراني أيها الجار مقِرا لك على

ما تقول. بل إني أعاتبك على التحدث بمثل هذا القول. أيجوز للرجل ذي الجدارة والفضل، ألا يفكر وقت الشدة أو الرخاء إلا في نفسه، فلا تحرك قلبه عاطفة، ولا يجد لذة في مشاطرة غيره السرور والحزن؟ أما أنا فلعمري ما أحسَسْتُ كاليوم رغبة في أن أرتبط برباط الزواج، فكم من فتاة صالحة تُعْوِزُها حماية الرجل القوي، وكم من فتى حلّ به الشقاء فبات في حاجة إلى امرأة تبعث في قلبه السرور».

هنا ابتسم الوالد وقال: «أحْبِبْ إليّ بسماع هذا الكلام منك! ولقلما سمعتك تنطق بمثل هذه الكلمات الحكيمة من قبل».

وقالت الأم على الأثر: «حقّاً بنيَّ نطقت بالصواب وإنّك لترى في والديك خير مثالٍ لما ذكرت. فلم يكن اليوم الذي ارتبطنا فيه يومَ سعادة ورخاء. وبرَغْم هذا فإن ساعات الشدة قد زادت رباطنا وثوقاً ومتانة...

«كان اليومُ يوم اثنين في وقت الصباح. وإني أذكر هذا جيِّداً إذ كان اليوم التالي ليوم الحريق الهائل، الذي اجتاح مدينتنا الصغيرة ودمَّرها. ــ أجل ولقد مضى على ذلك اليوم عشرون عاماً

كاملة. فقد كنا في يوم أحد كما نحن اليوم، وكان الهواء حارًّا جافّاً ولم يكن بالمكان ماء إلا القليل. وكان الناس يتنزهون، مرتدين أحسن ثيابهم، وقد انطلقوا إلى القرى وإلى الحانات والارحية. فاشتعلت النار فجأة في طرف المدينة. ثم أخذت تجتاح الطرق بسرعة هائلة، وفي أثرها رياح شديدة التيار قد أثارتها النيران. ولم يمض قليلٌ حتى التهمت النار مخازن الغلال، بما تكدس فيها من محصول تلك السنة الغنية، الكثيرة الخيرات. واحترقت الطرقات جميعاً حتى الميدان، والتهمت النار دار والدي وكانت قريبة من هنا، كما التهمت هذه الدار أيضاً. وما استطعنا أن ننقذ من متاعنا إلا القليل.

.

«في تلك الليلة الليلاء بَقِيت ساهرةً عند المروج في ظاهر المدينة، أحرس الصناديق والفُرُش. إلى أن غلبني النعاس فنمت، وعند الصباح أيقظتني برودة الفجر، فنظرت فإذا الدخان المتصاعد والأنقاض الملتهبة بين الأسوار والمداخن العالية.. وقد انقبض لهذا المنظر صدري.

«وبرغم هذا لم تلبث الشمس أن طلعت في كامل رَوْعتها

وبهائها، فبعثت في نفسي روح البسالة والجلد، فنهضت على عجل، وانطلقت وبنفسي رغبةٌ مُلِحّةٌ في أن أتفقد الموضع الذي كانت في دارنا، ولأنظر لعَلَّ دَجاجنا قد نجا، فلقد كنت أحبه حبّاً جمّاً؛ وكنت بعدُ في مثل سذاجة الأطفال.

جعلت أتمشى فوق أنقاض الدار والحديقة؛ ولم يزل يتصاعد منها الدخان، وقد أصبح المسكن الأمين قفراً بلْقعاً. ورأيتك في تلك الساعة مقبلا من الناحية الأخرى تتفقد المكان، وكان جواد من جيادك محتبساً في الاصطبل المدمَّر. وقد تكدست فوقه كتل من الخشب المحترق والأنقاض المضطرمة: بحيث لم يكن للجواد أثرٌ يرى.

وهكذا كنا واقفين: أحدنا قبالة الآخر، مطرقين حزينين، وقد تداعى الجدار الذي كان يفصل بين داريْنا. فقبضت أنت على يدي وقلت لي: «ما الذي جاء بك إلى هنا يا ليزا؟ ابتعدي فإنك تحرقين نعليك! فإن بالأنقاض ناراً حامية تحرق نَعْليّ، على ما بهما من غِلظٍ ومتانة.. ثم حملتني بين ذراعيك وأخرجتني من فناء منزلكم، الذي التهمته النيران فلم تبق منه سوى الدِّهليز الكبير بقوسه المعقودة، على نحو ما نراه الآن. وهناك أنزلتني،

وجعلتَ تلثمني، وجعلتُ أدفعك عني، فتكلمتَ عندئذ بكلمات تنِمُّ عن الحب المتين، كما تنمُّ عن العقل الرصين. فقلت: أنظري إلى الدار، كيف غدت أثراً بعد عين! فلا تبرحي أو تساعديني لأقيم بناءها، وأشيد صرحها. وأنا كذلك سوف أعاون أباك على بناء داره.

«لم أفهم لأول وهلة معنى هذه العبارات، حتى جاءت أملك إلى والدي، وعُقِدَ لنا ــ على عجل ــ زواجٌ ناعمٌ سعيد.. وما زلت إلى اليوم أذكر، في شيء من السرور. تلك الأنقاض المضطرمة، وأرى ماثلة أمام عيني شمس ذلك اليوم، وملؤها الروعة والجلال. فلقد رزُقت الحليل في ذلك اليوم، ورزقت بعد قليل ولدي البكر، والمدينة بعدُ خراب بلقع.

«من أجل هذا، يا هرمن! أحمد لك هذا الإيمان، وأناشدك أن تبادر فتختار لك في هذه الأوقات العصيبة، فتاةً صالحة، تخطبها، على رغم هذه الحرب الضروس، وما بها من تخريب وتدمير».

وتكلم الوالد بشيء من الحماس قال: «ألا إنه لخاطرٌ سعيد ما قد خطر لك أيتها الوالدة. والحكاية التي قصصتها

صحيحة في كل جزء من أجزائها. ولكن هنالك حال خير من تلك الحال: فليس بمُقَدَّرٍ لكل إنسان أن يبتدىء حياته من جديد، فيجد وينصب، كما كنا نحن نجد وننصب. وإنما السعيد حقا من أسلمه الوالدان داراً عامرة، ثم يتسع رزقه فيزيد في جمالها وزينتها.

«إن البدء في كل شيء أمر عسير، وعسير بنوع خاص البدء في إقامة منزل وعمارته. وحاجات الإنسان كثيرة متعددة. وأثمانها تزداد في كل يوم. فيبذل المرء جهده كي يزداد ماله.. ولهذا أرجو يا هرمن أن تبادر بعد قليل باختيار زوجة طيبة، تدخل هذه الدار ومعها مهر صالح. والفتى الصالح أَوْلى الناس بالزوجة ذات اليسار. وهو جدير وحقيق بأن تدخل إليه الحسناء. تتبعها الصناديق والأسفاط. فيها الهدايا النافعة. وليس من العبث أن تقضي الأم السنين الطوال، في إعداد الأقمشة، التي تجمع بين الدقة والمتانة من أجل ابنتها، وليس من العبث أن يُهدي الأقرباء ما عندهم من الأواني الفضية. وأن يفتش الوالد في داخل أدراجه عما خبأ فيها من قطع الذهب النادرة الوجود. ليس هذا كله عبثاً، لأن الفتاة، بكل هذه الهدايا والمِنح ستشرح

صدر بعلها، الذي اختارها واصطفاها على سائر النساء.

وإني لأعلم ما تُحِسُّه الزوجة الفتاة من ارتياح واغتباط، حين تنظر إلى البيت الذي اتخذته داراً لها، فترى في المطبخ وفي كل حجرة من الحجرات أوانيها التي جلبت معها، والفراش الذي فرشته، والمائدة التي أعدتها هي وبسطتها.. أجَل وإني لَمُصر على ألاّ تدخل هذه الدار إلا عروس مجهزة مشوَّرة، فإن الفقيرة لا تلبث أن يَحْقِرها زوجها. وينظر إليها كما ينظر إلى الخادم، إذ دخلت الدار وليس معها إلا حقيبة خادم. والرجال قليلو الإنصاف وأوقات الغرام سريعة الزوال...

«أجل يا عزيزي هرمن! لتملأن كهولتي سروراً لو أنك أسرعت، فاقتدت إلى هذه الدار عروساً من فتيات هذه الناحية، بل من بنات جيراننا: من تلك الدار الخضراء التي أمامنا. والرجل لعمري من السَّراة، وله تجارة وصناعة يزداد بهما في كل يوم غنى؛ وأي التجار لا يكسب ويربح؟ وليس له من البنات إلا ثلاث. ستئول إليهن وحدهن كل تلك الثروة؛ أما الأولى فقد خطبت وقضى الأمر؛ وبقيت الثانية والثالثة. ولكن لن تبقيا هكذا طويلا. ولو كنت مكانك ما ترددت حتى الساعة، بل

لبادرت فظفرت بإحدى الفتاتين. كما فُزْت أنا من قبل بأملك العزيزة».

○

لم يجد الفتى بُدّاً، أمام إلحاح والده وإصراره، من أن يجيب على مقاله. فقال في تواضع وحياء: «لقد كانت إرادتي من قبل وفق إرادتكم اليوم: أن أختار إحدى بنات جارنا. فلقد نشأنا ورُبينا معاً. ولطالما لعبنا معاً في تلك السنين الغابرة لدى البئر التي في الميدان. وكثيراً ما وقفت دونهن، أدفع عنهن شراسة الصبيان. بيد أن هذه أيام قد خَلت. وقد وقر الفتيات في دارهن بعد أن كبرن. وأصبحن اليوم بعيدات عن ألعابنا الخشنة.

«أما أدبهن العالي فأمر مسلم به. ولقد كنت أختلف إلى دارهن من حين إلى حين، تبعاً لإرادتكم، واستبقاءً للمودة القديمة. ولكنني ما أحسست يوماً سروراً أو اغتباطاً بصحبتهن والتحدث إليهن. فلقد كن دائماً يجدن فيّ موضعاً للنقد واللوم.

وكان عليّ أن أتقبل هذا كله منهن! فأحياناً ألام لأن ردائي طويل وقماشه خشن ولونه قبيح ذميم. وآونة ألام لأني لم أحسن تصفيف شعري وتجعيده. حتى لقد صممت أخيراً أن أتأنق في ملبسي وأتزوق، كما يفعل أولئك الفتيان من أولاد التجار، الذين ألقاهم أبداً هناك في الآحاد، والذين تتدلى قطع الحرير من ثيابهم دائماً في فصل الصيف. لكنني لم أكد أفعل ذلك، حتى جعلن يسخرن مني؛ فكان هذا مؤلماً لنفسي، جارحاً لكبريائي. على أن الذي اسقمني وعنّاني، حقاً أنهن كن ينكرن مني كل كلمة طيبة أو نية صالحة أتقرب بها إليهن جميعاً، وإلى (مينا) الصغرى خصوصاً؛ فلقد ذهبت لزيارتهن في عيد الفصح الأخير، ولبست في ذلك اليوم ثوبي الجديد، وهو المعلق في الخزانة الآن، ولبست شعراً مستعاراً مصففاً شأن بقية الفتيان، لكنني لم أكد أدخل حتى جعلن يتخالسن الضحك. فلم أبد إشارة، كأن غيري المقصود بهذه السخرية. وكانت (مينا) جالسة إلى البيانو، وكان والدهن جالساً يصغي منشرح الصدر، وقد أطربه غناء ابنته. أما أنا فقد استعصى عليّ إدراك الكلمات التي اشتملت عليها الأغاني، ولكنني سمعت اسمين يترددان المرة بعد المرة وهما (بامينا)

و (تامينو)[1] ولم أرد أن أبقى صامتاً ولا أنطق بحرف، فلما انتهى الغناء جعلت أسأل عن القطعة عن ذينك الشخصين، فسكت الجميع وهم يبتسمون. ثم نظر إليّ أبوهن، وقال: أليس صحيحاً يا صديقي أنك لا تعرف من بني الإنسان غير آدم وحواء؟» عند ذلك لم يستطع أحد من الحاضرين أن يمسك نفسه، فأغربت الفتيات في الضحك، وأرعد الفتيان ضاحكين، وقبض الوالد على بطنه بيديه. وملكتني أنا الحيرة فسقطت قبعتي من يدي. وبقي الجميع ممعنين في الضحك، حتى أثناء العزف والغناء. ولم أطق صبراً على كل هذا، فعدت مسرعا إلى منزلي، وأنا نهبة للكآبة والخجل. فخلعت تلك الثياب وأودعتها الخزانة، وانتزعت ذلك الشعر بأصابعي. وأقسمت لا وطِئت رجلي عتبة دارهن بعد ذلك اليوم. وحق لي هذا، فإن رُؤسهنّ قد امتلأت بالغرور والخيلاء، بقدر ما خلت قلوبهن من الحب.

---

(١) Tamino Pamina شخصان في إحدى أوبرات موزار الشهيرة وهي الناي المسحور (Zauber floete) وفي السنة التي تجري فيها حوادث هذه القصة (حوالي سنة ١٧٩١) كانت هذه الأوبرا بعد حديثة جدا. فلا ينتظر من فتى ساذج مثل هرمن أن يكون قد علم من أمرها شيئا كثيراً.

«ولقد علمت أني ما زلت أدعى في دارهن (تامينو) إلى وقتنا هذا».

فقالت له الأم: «ما ينبغي لك يا هرمن أن تطول موجدتك على أولئك الطفلات ـــ وما هن في الحقيقة إلا طفلات ـــ ومينا الصغيرة فتاة صالحة، وكانت أبداً تعطف عليك ومنذ عهد قريب كانت تسألني عنك. وتحسن لو اتخذتها زوجا لك».

فأجاب الفتى مفكراً: «لست أدري، غير أن الكدر الذي استولى عليّ ذلك اليوم قد ترك في قلبي أثراً عميقاً. فبت وما بي رغبة لرؤية مينا ولا للإنصات إلى عزفها وغنائها».

وتكلم الوالد في شيء من الحدة والغضب فقال: «ما أراني واجداً منك شيئاً ترتاح إليه نفسي. ولطالما قلت لك هذا مراراً وتكراراً، حينما كنت أراك وليست لك في الحياة لذة سوى الاهتمام بالمزرعة وبالخيل. وتلك لعمري أعمال يؤديها غلام من غلمان السادة ذوي اليسار. فكيف لمثلها ينصرف الابن بدلا من أن يقوم بما يرفع رأس أبيه بين أهل المدينة! ولطالما كانت أمك تعللني بالأماني الكذاب؛ حينما كنت عاجزاً وأنت بالمدرسة، عن تعلم

الكتابة والقراءة وحفظ الدروس كما يفعل سائر الفتيان، فكنت الأخير من بينهم جميعاً. ولعمري لقد كانت تلك حالا لا مفر منها، ما دام صدر الشاب خالياً من الشمم والكبرياء، فلا يطمح ببصره إلى المعالي... آه لو أن أبي عنى بأمري عنايتي بأمرك، فأرسلني إلى المدرسة وخصص لي المعلمين والمؤدبين! أجل لو أنه فعل هذا لكنت اليوم شيئاً آخر غير صاحب خان (الأسد الذهبي)».

عند ذلك نهض الغلام واقترب من الباب في صمت وفي سكون وهدوء يريد الخروج؛ لكن الوالد أتبعه هذه الكلمات وهو حانق غاضب: «أجل فلتذهب ولتنصرف عنا! وأنا عالم بما في رأسك من عناد وإصرار. اذهب إذاً وانظر في شئون الدار والمزرعة. كي لا أسمعك من التقريع أمرّه وأقساه! لكن حذار أن تجلب يوماً إلى هذه الدار فتاة من بنات الفلاحين رعاة الأبقار لتكون لابني زوجا! لقد عشت طويلا وتعلمت كيف أعاشر الناس وكنت أحتفي بهم. فيرجعون قريري الأعين، منشرحي الصدر. وتعلمت كيف ألاطف الغريب وأدخل على قلبه السرور. ولهذا لا بد لي في النهاية من أن تكون كنّتي فتاة طيبة.

تنسيني بحلاوة خلقها ما قاسيت من مرارة وعناء. ولا بد أن تجيد العزف على البيانو. ولا بد أن تصبح داري ملتقى الطبقات الأنيقة من أهل المدينة. يفدون إليها ويقبلون على زيارتنا كما يفعلون أيام الآحاد في دار جارنا.».

وهنا أمسك الفتى بمزلاج الباب. وفتحه بسكون وغادر الحجرة.

النشيد الثالث

طاليا[1] THALIA

(الهة الكوميديا)

---

(١) في هذا الفصل يسخر المؤلف بالطبقات المتوسطة (البورجوا). وكلمة «سكان المدن» لا تؤدي تماما معنى بورجوا؛ فهؤلاء عادة جماعة ذوو يسار يتشبهون بالخاصة ولكن عقليتهم السطحية تقربهم من العامة. فإلهة الكوميدا إذن تلائم هذا النشيد تماما. وصاحب الفندق يمثل هذه الطبقة أحسن تمثيل هو والصيدلي.

سكان المدن

هكذا اعتصم الفتى المتواضع بالفرار، هرباً من ذلك الخطاب العنيف..

غير أن الوالد لم تهدأ ثائرته، وعاد إلى الكلام كما بدأ، فقال: «إنك لن تستخرجَ من إنسانٍ ما ليس فيه. وهيهات أن أشهد تحقيق أمنيتي العزيزة التي أتمناها أبدا: وهي أن الولد يجب أن لا يكون مشابها لأبيه، بل أعلى منه درجات. وإلاّ فأين يكون مصير الأسرة، بل مصير المدينة كلها، إذا لم يكن هَمُّ كل فرد أن يحرص على تالده، ويستحدث الطريف الجديد، ويعنى أبدا بتحسين ما لديه؟..

«ذلك هو الدرس الذي علمنا إياه الزمان، كما علمتنا إياه البلاد الأخرى.. وما ينبغي للإنسان أن يكون مثله كمثل نبات (عيش الغراب)، ينمو في الثرى، ثم يدركه العطب في المكان الذي نماه وأخرجه، دون أن يترك وراءه أثرا فيه مظهر من مظاهر الحياة.

«وحسب المرء نظرةٌ يلقيها على الدار ليعلم من صاحب الدار، وما مبلغ ذكائه وعقله. كما نعلم كيف تدار المدينة وكيف تحكم لمجرد خطوات نخطوها في طرقاتها[1]. فحيث ترى الأبراج قد تداعت، والأسوار قد مالت، والخنادق والأزقة قد تكدَّست فيها القمامة، وحيث الأحجار قد تقلقلت في كل بناء، فلا ترد إلى مواضعها. وحيث الدعائم توشك أن تنْهار، والحاجة مُلحة إلى دعائم جديدة، فحيث ترون ذلكم كله فأيقنوا أن المدينة قد ساءت حكومتها.. لأن الطبقات العليا إذا لم تفرض النظافة والنظام فرضا على من دونها، فسرعان ما يعتاد أهل المدينة القذارة والإهمال، كما يعتاد الشحاذ لبس الرداء الخلق.

---

(١) يجب تنبه القارىء إلى أن ألمانيا في ذلك الزمن كانت مقسمة عدة وحدات مستقلة تتركب أحيانا من مدينة صغيرة وقطعة من الأرض تحيط بها.

«كثيرا ما وَدِدت لو آن هرمن يبادر بالقيام ببعض رحلات. فلا أقل من أن يزور استراسبورج وفرانكفورت، ويرى مدينة ما نهيم الجميلة البناء والتنسيق. فإن من شاهد المدن الكبرى وما بها من نظافة ورواء، فلن يقر له قرار حتى يعجل بتجميل مدينته مهما كانت صغيرة.

«أرأيتم كيف يعجب الغرباء بأبواب مدينتنا بعد إصلاحها وبالبرج الناصع البياض، وبالكنيسة بعد تجديدها؟ أليس الكل معجبا بطرقنا المرصوفة، وبالقنوات ذات المياه الجارية المغطاة، المنتشرة في كل ناحية، وهي على كثرة فائدتها مصدرٌ للسلامة والأمن، وبواسطتها استطعنا مكافحة النيران عند بدء اشتعالها.

«فحدثوني بالله، ألم تتم هذه الأعمال كلها منذ ذلك الحريق المروّع؟ ولقد كنت في مجلس المدينة ست مرات، متوليا رئاسة الأعمال العامة، فقمت بما جعلني جديرا بأن يهتف لي أهل المدينة وأن يبذلوا لي جزيل شكرهم. فلقد كنت أقترح الخطط. ثم أمضي في تنفيذها، بل وفي تنفيذ ما اقترحه سواي من أهل المدينة ثم عجزوا عن إكماله وإتمامه. وأخيراً دب الحماس في أعضاء المجلس جميعا، فجعل كلٌّ منهم يجد ويدأب، حتى لقد

أصبح في حكم المقرر إنشاء ذلك الجسر العظيم الذي يصل المدينة بالطريق الجديد.

«لكنني أخشى كثيرا أن الشباب لن يتخذنا مثالا وقدوة فهم إمّا فريق لا يفكر في غير السرور والملذات، ولا يعنى بغير الأنيق من اللباس، والتافه من الأمور. وفريق آخر يقبع في عقر داره، ويختفي وراء موقد النار مدى الحياة.. وإني لأخشى أن هرمن سيبقى أبدا من هذا الطراز».

فقالت الأم وهي تلك المرأة الصالحة العاقلة: «إنك أيها الوالد ما كنت يوما منصفا لابنك. وإنك بهذا تجعل من العسير أن يتحقق رجاؤك فيه.

وليس في وسعنا أن نكوّن أبناءنا وفقا لأهوائنا. أليسوا هِبةً وهبنا الله إياها؟ فما علينا إلاَّ أن نحرص عليهم، ونبذل لهم كل حب ورعاية، ونحسن تربيتهم بقدر استطاعتنا، وبعد ذلك نتركهم وشأنهم. فإن لكل منهم مواهب، يستخدمها وينتفع بها، غير مواهب الآخرين. ولن يصيب الواحد منهم صلاحا أو سعادة في الحياة إلا بما يقضيه مشربه ونزعته.

«وإني لن أسمح لأحد أن يضع من قدر ولدي هرمن، وأنا

أعلم علم اليقين أنه حقيق وجدير بتلك الثروة التي ستؤول يوما إليه . فهو ربٌّ منزلٍ قلَّ أن يوجد له نظير . ومثال يقتدي به أهل الحضر وأهل الريف على السواء . وأرى من الآن ، وأنا واثقة مما أرى ، أنه لن يكون الأخير في مجلس المدينة ودار ندْوَتها . لكنك بهذا اللوم والتقريع ، في كل لحظة وآونة ، تكدر صفاءه ، وتجعل صدره ضيقا حرجا ، كما فعلت الساعة» .

وبعد أن قالت هذه الكلمات ، غادرت الحجرة مسرعة ، تبحث عن نجلها ، لعلها إن لقِيَتْه أن تأخذ في ملاطفته ومؤانسته ، وأن تعيد السرور إلى قلبه ، وهو بهذا كله جدير .

○

ولم تكد الأم تخرج حتى ابتسم الوالد ، وقال :

حقاً إن النساء لجنس غريب ، وما هن في الحقيقة إلا كالأطفال ، تسير كل واحدة منهن حسب ما يمليه هواها ، وعلينا نحن أن نسترضيهن بالملاطفة حينا ، وبالثناء عليهن حينا .

«غير أني ما زلت مصرا على صحة ذلك المثل الذي علمنا

القدماء إياه وهو: من لم يسر إلى الأمام، رَجَع القهقرى».

فقال جارهم الصيدلي متمهلا، كأنما يزن الكلام وزنا[1]: «أوافقك كل الموافقة على ما قلت. وأنا نفسي أتلَمَّس الأحسن وأنشده دائماً، على شرط ألا يكون غالي الثمن، مع جودته وجدّته. وإلا فماذا يجدي على الإنسان دأبه وجده في إصلاح ما لديه، ظاهراً وباطناً، إذا لم يكن كيسه مفعما بالمال؟ إن ساكن الحضر محدودة موارده جداً، فهو قد يرى الشيء الصالح فلا تجرؤ نفسه أن تشتهيه، وما دام كيسه قليل النقود وحاجاته كثيرة العدد، فلا عجب إذا رأيته أبداً عاجزاً، مكتوف اليدين.

«وأنا نفسي أود أن أقوم بأعمال شتى؛ لكن من ذا الذي لا يحجم ولا يتردد أمام النفقات الباهظة، خصوصاً في هذه الأزمنة الخطيرة؟ فمنذ عهد بعيد أفكر في تنميق منزلي وتجميله طبقاً للمشرب الحديث؛ بحيث يصبح لنوافذه الفسيحة زجاج كبير لامع برّاق. ولكن مَن منا يستطيع أن يقتدي بذلك التاجر

---

(١) جعل المؤلف من هذا الصيدلي مثلا للرجل الذي يقول أتفه الأقوال بشكل من يتكلم كلاما ذا أهمية كبرى. ولهذا هو يزن كلماته وزنا.

الذي يعرف، على رغم كثرة أمواله، كيف يحصل على أحسن الأشياء بأبخس الأثمان؟ أنظر إلى داره الجديدة التي بناها قبالتنا! ما أجمل أعمدتها اللولبية البيضاء ومن ورائها الحديقة الخضراء. وانظر إلى زجاج النوافذ وحجمه الكبير! وكيف يلمع كأنه مرآة وضيئة، حتى لقد تلاشت بجانبه سائر المنازل في هذا الميدان... ومع ذلك ألم يكن بيتي «صيدلية الملاك» وبيتك أنت ـــ (الأسد الذهبي) أحسن بيوت هذا الميدان جميعاً بعد الحريق بزمن وجيز؟ ولقد كانت لحديقتي شهرة في سائر الإقليم، وما من مسافر إلا وقف لديها لحظة ينظر من خلال السياج إلى التمثال الحجري للشحاذين، والصورة الملونة للأقزام. ولكم دعوت الأضياف إلى تناول القهوة في الغار المشيد بالحديقة، وهو الآن قد أخذ يتداعى ويعلوه الغبار، فكانوا جميعاً يعجبون أشد الإعجاب بذلك الضياء المتعدد الألون المنبعث من القواقع المنضدة أحسن تنضيد. وكان الخبير بهذه الأشياء ينظر حائرا إلى لمعان الرَّصاص والمَرجان المصطنع. وكذلك كانوا يعجبون بصورة في الصالون تمثل سيدات وسادة يتنزهون في الحديقة، لابسين أبهى الثياب، ويتناولون الأزهار بأيديهم، أو يمسكونها بأطراف الأصابع.

«أما الآن فمن ذا الذي يلقي مجرد النظرة على شيء من هذا؟ إني أنا نفسي ـ لشدة غيظي ـ قلما أخرج إلى الحديقة الآن. وقد أصبح من الواجب تغيير كل شيء، لكي يصبح وفاقا للذوق الحديث كما يزعمون. ويجب أن تطلى الأخشاب جميعا باللون الأبيض وكذا المقاعد الخشبية. ويجب أن يكون كل شيء بسيطا خاليا من كل حلية. فلا ينبغي أن تكون هنالك أخشاب محفورة أو مذهبة. والأخشاب الأجنبية هي أعز أنواع الخشب وأغلاها.

«ولهذا تراني على شدة ولعي باقتناء الجديد ورغبتي في مسايرة الزمن، بأن أُغيِّر وأبدل أثاث المنزل من آن لآن، أجد الناس جميعا يحجمون حتى عن تبديل أقل الأشياء، وأصبح العمال بحيث لا يستطيع أحد دفع أجورهم.

«ولقد خطر لي حديثا أن أكلف من يقوم بتَذْهيب الملاك ميكائيل، وهو كما تعلم شعار الصيدلية، وكذا التِّنِّين المخيف الملتف حول رجليه. ولكني اضطررت، لارتفاع الثمن، أن أتركه ليكتسب اللون الأسود على مضي السنين.».

النشيد الرابع

يوتربا EUTERPE

(الهة الشعر الغنائي)

الأم وابنها

وبينما الرجال يتجاذبون أطراف الحديث، ويلتمسون في الحديث ما استطاعوا من لهو وتسلية، كانت الأم منهمكة في البحث عن فتاها. فتفقدته أولاً خارج البيت على المقعد الحجري الذي اعتاد الجلوس عليه، فلمّا لم تجده هناك انطلقت إلى الاصطبل لعله ذهب هناك: إلى تلك الصافنات الجياد، التي اشتراها وهي أمهار، وأبى أن يقوم على رعايتها أو يُعنى بها أحد سواه.

أنبأها الخادم أن مولاه انطلق إلى الحديقة، فجعلت تجتاز الفناءين على عجل، تاركة وراءها الاصطبل، والأجران المحكمة

البناء. ودخلت الحديقة: فإذا هي فسيحة الأرجاء، قد امتدت إلى سور المدينة؛ وقد أقَرَّ عينها ما رأته فيها من نَماءٍ وازدهار، فجعلت تقيم المتداعى من الدعائم التي تستند عليها غصونُ التفاح، أو فروعُ الكمثرى، المجلَّلة بالثمار، وتنتزع الحشرات والديدان عن الكرنب الذي أمعن في النمو. كانت تعمل هذا كله وهي سائرة في طريقها؛ لأن المرأة النشيطة لا تخطو خطوة خلواً من النفع والفائدة.

وأخيراً وصلت الأم إلى نهاية الحديقة، حيث الجوسق يكسوه الياسمين. لكنها لم تجد للفتى أثراً، لا هنالك ولا في سائر الحديقة؛ بيد أنها لاحظت أن باب الجوسق منفتح قليلا، وهو باب صغير رُكِّبَ في سور المدينة، وهذا دليل الحظوة والرعاية التي نالها أحد الأجداد إذ كان للمدينة عمدة من خيار العمد.

خرجت الأم من ذلك الممر إلى ما وراء السور، وهنالك أبصرت الكروم يحيط بها سياج متين الصنع، وقد غرست على منحدرات تسطع فيها أشعة الشمس، وقد امتدت عُرُشها صاعدة على تلك المنحدرات.

صعدت الأم وسط هذه العرائش، وقد راقها ما رأته من

وفرة العناقيد، حتى ما تكاد الأوراق أن تخفيها. وكان بين العُرُش طريق مظلل يرتقي إلى أعلى الكثيب، ويُصعد إليه بدرجات غير منتظمة من الحجر. ومن العُرش كانت تتدلى عناقيد العنب الرازقي والمسكاتي، وإلى جانبها عنب بنفسجي اللون، وقد امتاز بحباته الضخمة.

هذه الكروم جميعاً قد غرست من قبل بجد وعناية، لكي تتحلى بثمارها مائدة الضيوف بالفندق. وعلى الكثيب، غير هذه العرش، شجرات مبعثرة حباتها أصغر حجما، ومنها تعصر تلك الصبهاء الغالية.

جعلت الأم تصعد الكثيب، وقلبها يحس السرور سلفاً لاقتراب الخريف، ولما يؤذن به من أعياد يحتفل فيها أهل الناحية. فيجتنون أطيب العناقيد، ثم يدوسونها بأرجلهم[1] ويجمعون العصير في الخوابي؛ وفي المساء ــ تكريماً للغلة الوافرة ــ تُرى الألعاب النارية وهي تملأ الفضاء بأضوائها وضوضائها.

لم تلبث الأم أن ازداد قلقها، حين نادت ولدها مَثْنى

---

(١) عصر الخمر بواسطة الأرجل (بعد غسلها بالطبع) كان شائعا في ذلك الوقت. كما أنه ذائع في مصر لاستخراج الزيت من بعض البذور مثل السمسم وغيره.

وثلاث، فلم يجبها غير رجع الصدى، تردده أبراج المدينة ... ولم يكن من عادتها أن تفتش عنه، ولا من دأبه أن يذهب بعيداً. وما كان له أن يذهب دون أن ينبئها بذهابه كي يَهدأ روعها، ويطمئن قلبها.

على أنها لم تزل ترجو أن تلقاه في هذا الطريق، لأنها رأت أن بابي الكرمة: الأسفل والأعلى، كلاهما مفتوح. فاجتازت البابين إلى الحقول التي بظهر الكثيب، وهي أيضاً من ممتلكات الأسرة، وقد سرها منظر البُرِّ، قد مالت سنابله مُوقَرَةً بما تحمل من حَبّ ذهبي.

جعلت تمشي وسط المزرعة في ممر ضيق، ووجهتها دوحة الكمّثْرَى القائمة على ربوة تلي الكثيب، وهي الحد الذي تنتهي إليه ممتلكات الأسرة.

وهذه الدوحة علم بارز، تلمحه العيون من سائر أطراف الإقليم، ولثمارها شهرة واسعة؛ ولا يعرف أحد من ذا الذي غرسها... وكثيراً ما يأوي إليها الحاصدون ورعاة الأبقار، فيجلسون في ظلها ساعة الظهيرة، ولهذا كان تحتها مقاعد من الحجر الخشن والعشب اليابس.

ولم يكذب ظن الأم ، فلقد كان هرمن هناك حقا ، كان جالساً في ظل الشجرة معتمداً ذراعيه ، وكأنما ينظر إلى الجبال ، مولياً ظهره إلى الناحية القادمة منها أمه . فتقدمت هذه نحوه في هدوء ورفق ، ولمست كتفه بيدها . فالتفت إليها فجأة فرأت الدمع يترقرق من عينيه .

فقال لها وهو كالمأخوذ : «أماه ! إنك أتيتني على غرَّة !» وجعل يكفكف دمعه على عجل ...

فقالت الأم ، وأحزنها مارأته : «ما هذا ، أتبكي يا بني ؟ إني أنكر هذا منك ، وما عهدتك يوماً بالذي تدمع عيناه ! قل لي ما الذي انقبض له صدرك وأَلِمَت له نفسك ، ودفع بك إلى الانفراد في ظل هذه الشجرة ؟ ولم يكفك هذا حتى جعلت تذرف الدمع ؟» .

فتمالك الفتى نفسه وقال : «إن الذين لا تأخذهم عاطفة رحمة على أولئك الشريدين ، هم أناس صدورهم من نحاس ، وليس بين جوانحهم قلوب . وقليل العقل جدا من لا يعنى في هذا الزمن العصيب بسعادته وسعادة وطنه .. ولقد أَلِمَت نفسي اليوم لما سمعته بأذني وما أبصرته بعيني ، ونظرت الآن إلى ما حولي : فرأيت

هذه المزارع المترامية الأطراف، تكسو الكثبان والسهوب، المحيطة بنا من كل صوب. ورأيت السنابل الذهبية، وقد مالت تنتظر الحصاد، والفاكهة اليانعة وتوشك أن تكتظ بها خزائننا.. ولكن ماذا يجدي هذا كله والعدو على أبوابنا؟.

«ولئن قيل إن نهر الرين بتياره المتدفق يحمينا ويعصمنا، فأي نهر وأي جبل يستطيع أنْ يقينا بأس ذلك الشعب المخيف، الذي يزحف علينا كأنه الريح العاصف، ذات البروق والرعود. وها هم أولاء قد أهابوا برجالهم شباناً وشيباً، واحتشدوا زمرة في إثر زمرة، وفوجاً وراء فوج. وأخذوا يزحفون علينا بعنف، وهم في عديدهم الهائل لا يرهبون الردى، ولا يُفلُّ لهم عزم. ثم بعد هذا نرى من الألمان من يجرؤ على البقاء في داره، كأنما سولت له نفسه أن سوف يفلت مما يتهدد الناس جميعاً من الويل والثبور.

«فيا أيها الأم العزيزة، إنني اليوم كدت أتميز من الغيظ، إذ ذكرت أنهم قرروا إعفائي، حينما اختاروا المقاتلين من أهل المدينة. لست أنكر أنني الابن الوحيد، وأن بيتنا كبير، وأعمالنا ذات شأن وخطر. ولكن أما كان أجمل بي وأجدر أن أقف هناك على الحدود مدافعاً ومانعاً، من أن أبقى هنا أنتظر الشقاء والاستعباد؟

أجل وبهذا تحدثني نفسي، وإني لأحِسُّ في أعماق قلبي بأساً وعزماً يدفعانني لأن أحيا للوطن وأموت للوطن، وأكون للآخرين قدوة ومثلاً.

«ولعمري لو أن شباب الألمان بكامل قوتهم احتشدوا على الحدود، مجمعين على ألا يَهربوا أمام العدو؛ إذن لما استطاع أن يطأ هذا الثرى العزيز بأقدامه، وأن يلتهم ثماره اليانعة أمام أعيننا، وأن يتحكَّم في رجالنا، وأن يسلبنا نساءنا وبناتنا.

«انظري يا أماه! إني قد قرَّ رأيي، وصح عزمي على أن أبادر الساعة، بل هذه اللحظة، إلى إمضاء ما أراه عدلاً وصواباً.. ولا خير في تفكير طويل، قد لا يَهدي إلى الرشد دائماً. وما من داع إلى أن أعود إلى دارنا، بل أنطلق من هنا إلى المدينة رأساً، فأقدم إلى الجند هذه الذراع وهذا القلب من أجل خدمة الوطن.

«فهل يصر الوالد بعد هذا على أني لست ممن يجيش بصدرهم طبع كريم، أو يتطلعون بأبصارهم إلى المعالي؟».

○

سالت عبرات الأم الطاهرة ـــ وهي سرعان ما تدمع عيناها ـــ وأجابته بعقل وروية : «أي طارىء يا بُني قد بدل من طبعك ومن خلقك، فأصبحت لا تخاطب أمك بتلك الصراحة التي عودتها إياها بالأمس، وقبل الأمس، وأمسيت وما تحدثها بحقيقة ما تضمره وما تريده؟ لو سمع قولك الآن ثالث لخدعته عبارتك وحديثك الخطير، ولأثنى عليك أطيب الثناء، وحكم بأن عزمك هذا من أشرف الأمور وأجلها.

«أما أنا فإني ألومك، لأني أدرى بك وأعرف... إنك تكتم في قلبك سراً، وتخفي خلاف الذي أبديت وأنا أعلم أنك لست ممن يستهويهم دق الطبول وصوت الأبواق، ولا ممن يلذ لهم أن يظهروا أمام الفتيات في ثوب الجندية البراق. وبرغم ما أنت عليه من شجاعة وإقدام، فإن مهنتك التي تهواها هي أن ترعى المنزل، وتعنى بالمزرعة. إذن فلتجبني إجابة صريحة: ما الذي دفعك إلى ما عزمت عليه؟».

فأجاب الفتى: «لقد أخطأ ظنك يا أماه! فإن المرء لا يبقى على حال مدى الأيام. والفتى ينضج فيغدو رجلا. وأولى له أن ينضج في هدوء وسكون ثم ينهض بجليل الأعمال، من أن

يكون نضجه وسط ضوضاء حياة مضطربة جامحة، طالما كانت نكبة على الفتيان... وإني برغم ما كنت عليه أبداً من الهدوء، قد نما في صدري قلب حساس يبغض الظلم والأذى، وأصبحت قادراً على التفريق بين ما في هذه الحياة الدنيا من أمور ومذاهب. ولقد كان العمل في المزرعة سبباً في أن اشتد ساعداي ورجلاي.

«إن هذا الذي أزعمه صحيح كله، وفي وسعي إثباته وتوكيده... غير أني لست أنكر أنك أصبتِ أيتها الأم في عتابي ولومي، فلقد أخذتِ عليّ كلمات قلتها الآن، فيها شائبة كذب، وفيها شائبة رياء. وإني أعترف لك بأني لست أبغي هجر الديار خوفاً من الخطر المحدق، او من أجل فكرة سامية تدفعني لأن أكون للوطن عوناً، وعلى الأعداء حرباً... هذه عبارات فُهست بها لعلي أستر بها عنك ما بقلبي من وجد يكاد أن يشقه ويمزقه. فذريني الآن أمضي ما عزمت عليه، فلئن أصبحت وما يجيش بصدري سوى آمال ضائعة، فأجدِر بهذه الحياة أن تذهب في إثرها.

«وإني لأعلم علم اليقين، أن الأفراد إنما يسيرون إلى

الدمار من غير جدوى، إذا لم يستشعروا المنفعة العامة فيما يأتون من الأعمال».

فقالت الأم العاقلة: «إمض في حديثك، وقص علي كل شيء، من جليل أو حقير!.. إن الرجال فيهم عنف وشدة، فلا يلتمسون من الوسائل إلا ما فيه غلوٌّ وإفراط. وبرغم شدتهم وعنفهم فإنهم كثيراً ما تخرجهم العقبات التي تعترضهم عن الجادة القويمة. أما المرأة فماهرة في التماس أواسط الأمور، وتعرف كيف تسلك أحياناً طريقاً بعيدة توصلها إلى غايتها ومقصدها.

فقص على الآن كل شيء، ولتحدثني بما أثار أشجانك بمثل هذا العنف الذي ما رأيته منك يوماً، وبما أهاج الدم في عروقك، وأسال الدمع من عينيك، على الرغم منك».

هنالك خان الفتى تجلدُه، وغلبه الحزن والشجن. فجعل يبكي وينتحب، مستنداً إلى صدر أمه. وقال بصوت فيه حزن ورقة: «إن الذي قاله اليوم أبي قد جرحني جرحاً دامياً، ما أظنني أستحق هذا منه اليوم، وما أظنني كنت يوماً لمثله مستحقا. فلقد كنت وليس أحب إلى نفسي من تمجيد أبوَيَّ وإعزازهما، وما كنت أرى في الحياة من هو أكثر عقلا وأحكم رأياً من هذين

اللذين ربياني صغيراً، ثم جدّا في إرشادي وتأديبي طوال عهد الطفولة المظلم.

«ولطالما كنت أحمل الإساءة والأذى من أترابي، إذ يقابلون حركاتي البريئة بالحقد والموجدة؛ وقلما كنت آبه لهم، أو أقابل منهم الأذى بمثله.. بيد أني إذا رأيتهم يهزأون بأبي حين يخرج من الكنيسة تكسوه الهيبة والوقار، أو يسخرون من الرباط المعقود حول قبّعته، أو الأزهار المطرزة على جُبّته التي كان يلبسها في جلال وأبهة ـــ وهي الجبة التي أُهديت اليوم ـــ فهنالك كان يأخذ الغضب مني مأخذه، فأوسعهم لكما وضرباً ولكزا، لا أعرف ولا أبالي أين تقع ضرباتي منهم. ثم ينصرفون وهم يعوْلون وينتحبون، والدم يجري من أنوفهم مدرارا، ولا يكاد الواحد منهم أن ينجو من وابل الضرب واللطم إلا بشق النفس.

«بعد ذلك جعلت أكبر وتزداد سني، فيزداد ما أكابده من والدي وما أعاني. إذ كان يجعلني غرضاً للسهام التي يريد أن يرمي بها الغير. فكلما لقي في مجلس المدينة عنتاً أحفظه، كنت أنا الذي أدفع الثمن لما لاقاه من زملائه من نزاع ودسائس، حتى لقد كنتِ أنتِ تأسين لي وترثين لما أعاني.

«ولقد كنت محتملا لهذا كله، مستشعراً أبداً أن للآباء علينا حرمةً وفضلا، إذ ليس همهم من الحياة إلا أن يكثروا الجمع والاقتناء من أجلنا، ولقد يزهدون في كثير من متاع هذه الحياة كي يدخروه لنا معشر الأبناء... لكنني ــ ويا للأسف ــ لا أرى السعادة كل السعادة في هذا الجمع في الحاضر لكي ننعم به في المستقبل.. أجل لست أرى السعادة في تكديس المال: كُدْساً على كدس، والأرض: فداناً إلى فدان، مهما حَسُنت شكلا ومنظراً.. لأن الوالد في أثناء هذا كله تتقدم به السن، والأبناء يكبرون، وليس لهم من نعيم يومهم نصيب، والمستقبل أبداً يُهِمُّهُم ويُنْصِبهُم.

«أنظري إلى ما يحيط بنا من هذه المزارع الوافرة، وإلى هذه الكروم والحدائق، من ورائها الأجران والاصطبلات، وكلها مرصوصة منسقة، المتاع يلي المتاع. فما أبدعها جميعاً وما أكثر خيرها!

«ثم انظري بعد هذا إلى طرف الدار، وإلى حجرتي الملتصقة بالسقف، والتي تبدو لنا نافذتها من هنا! تعود الآن إلى خاطري ذكرى ليالٍ قضيتها هناك، أنتظر طلوع القمر في الليل،

وبزوغ الشمس في الصباح، مكتفياً بساعات قلائل من النوم الصحيح العميق. كنت أنظر حولي فأحس الوحدة، ولا أرى في الحجرات أو في فناء الدار، أو في الحديقة المزهرة والحقول المنبسطة فوق الكثبان. لا أجد في هذا كله إلا خلاء مجدباً قفراً. وأظنني أصبحت تعوزني الحيلة!

فردت الأم بتعقل وفهم وقالت: «إن والدك ووالدتك لأشد رغبة منك في أن تتخذ لك شريكة في الحياة، فتصبح أيامك ولياليك ناعمة راضية. ولطالما حاولنا إقناعك بأن تختار لك فتاة، بل لقد دفعناك إلى ذلك دفعاً. بيد أني لست أجهل أنه إذا لم تأذن الساعة، أو إذا لم تظهر الفتاة المنشودة، فقد يلبث الاختيار مُعلّقاً زمناً طويلاً. فيسوِّف المرء ويؤجل، خشية أن يسيء الاختيار.

«لكنّ قلبي يحدثني بأنك قد اخترت وقضي الأمر، وكأني أرى قلبك قد شُغِف، فبات أكثر إحساساً مما عهدناه. إذن اصْدُقني الخبر الآن. فإن نفسي قد أحسّت الحقيقة منذ حين. إن التي اخترتها هي تلك الفتاة الشّريدة».

فأجاب الفتى بحماس: «لقد أصبتِ يا أماه! إنها هي ولئن لم يُتَحْ لي أن أصطحبها اليوم إلى دارنا عروساً وزوجاً. فإنها ستمضي في طريقها، وقد تختفي فلا أراها بعد اليوم. بسبب هذه الحرب الضروس، وما هم فيه من حل وترحال وأسفار. ولئن فقدتها، فستغدو هباء كل هذه الثروة. وهباء ما تأتي به السنون المقبلة من خيرات. والدار التي أسكن والحديقة الغناء سوف تنبو عنهما نفسي. بل وأنت أيها الأم العزيزة لن تجدي إلى تسليتي سبيلا. لأن الحب، حين يُوثِق رباطه، يحل عقدة كل رباطٍ آخر. وليست البنت وحدها هي التي تهجر والديها من أجل الرجل الذي اختارته وارتضته، بل كذلك الفتى ينسى أباه وأمه إذ يرى الفتاة التي اختصها بالحب تتوارى عن عينيه.

«فدعيني الآن أنطلق إلى حيث يقذف بي اليأس. فقد قال والدي في هذا الأمر كلمته القاطعة، وهيهات أن تكون داره بعد اليوم داري، ما دام يأبى أن تدخلها الفتاة التي أهوى من بين سائر النساء.».

فأجابته الأم على الفور: «ما أشبه الرجلين المتخاصمين بالصخرة تواجه الصخرة! كلاهما قد امتلأ جموداً وكبراً. ولا يريد

أن يقترب من الآخر قيد أنمُلة. أو أن يحرّك لسانه بكلمة طيبة تلقاء الآخرَ. لكني على رغم هذا لا يزال في صدري بارق أمل بأن أباك سيزوجك منها ما دامت على شيء كثير من الأمانة والصلاح، برغم ضيق ذات يدها، وبرغم كل الذي قاله اليوم من أنه يبغض مصاهرة الفقراء. فإنه كثيراً ما يقول في حدته المألوفة عبارات لا ينفّذ منها حرفاً. بل كثيراً ما يقبل الشيء الذي كان يرفضه ويأباه. وكل ما هنالك أنه يحب أن تقال له كلمة طيبة، وهو لعمري جدير بهذا لأنه السيد الوالد...

«ونحن جميعاً نعلم أن غضبه هذا، الذي يثور من بعد المائدة، ليس بشيء ذي خطر، فهو يتكلم بشدة وبعنف. وقد أثار النبيذ حفيظته، وأهاج كل قواه، فبات لا يحس ولا يسمع غير صوت نفسه، ويأبى الإنصات إلى ما يقوله سواه، لكن الآن قد اقترب المساء، وقد دار بينه وبين صديقيه أحاديث شتى؛ ولا تكاد تذهب عنه حدة الخمر حتى يعود أكثر هدوءًا وحلماً، ويحس أثر الظلم الذي أنزله بغيره.

«فهلم بنا الآن، ولنحاول أن نعمل الذي نستطيعه، دون أن نضيع لحظة؛ وما ينجح في الحياة إلا الإقدام والمغامرة. ونحن

في حاجة إلى مساعدة الصديقين اللذين يجالسانه الآن. وسيكون لنا القس الكريم خير نصير.».

ثم نهضت الأم واقفة، وأنهضت ابنها من مقعده. فقام يمشي خلفها طائعاً. وسارا كلاهما صامتين، ينعمان الفكر فيما ينويان أن يفعلاه.

النشيد الخامس

بوليهمنيا POLYHYMNIA

(الهة الأناشيد الدينية)

رجل الدنيا[1]

كان الأصدقاء الثلاثة: القسيس والصيدلي وصاحب الفندق، جلوساً بعدُ، يتجاذبون أطراف الحديث، الذي لم يتغير موضوعه، وإن كانوا قد قلّبوه على وجوهه جميعاً. وأخيراً قال القسيس الكريم الخصال: «لست أبغي معارضتكما فيما ذكرتما. بل إني مُقِرّ بأن الإنسان يجب أن ينشد الأحسن؛ ونحن نراه في الواقع يبتغي الأسمى من الأمور، أو على الأقل يبتغي الجديد.

(١) عنوان هذا النشيد رجل الدنيا: أي الرجل الذي اتخذ الدنيا كلها له وطناً لا يفرق بين الأقطار والأجناس. ولعل هذا إشارة للقسيس. وهنالك مقابلة بين رجل الدنيا Cosmopolite، وبين البورجوا ساكن المدينة المذكور في فصل سابق.

لكن يجبُ ألاَّ تغلوا. فإن الطبيعة قد أضافت إلى هذا أن حَبّبَتْ إلى الإنسان الحرص على القديم، والتَّنَعُّمَ بالشيء الذي ألِفَهُ واعتاده زمناً طويلا. وكل حال للمرء طيبة ما دامت تستند على أساس من الطبيعة والعقل.

«إن الإنسان كثيرةٌ رغباتُه، لكن حاجاته قليلة، والعمر قصير المدى، وحياة ابن الفناء محدودة، ولست بلائم يوماً ذلك الرجل، الذي أراه أبداً مُنْدَفِعاً قَلِقاً، يحوم ويجول، ويركب البحار، ويجوب سائر الأقطار، في هياج دائم وحماس، ثم يفرح ويطرب إذ يرى المال يتراكم حوله وحول ذوي قرباه. ولكني أرى واجباً عليّ أيضاً أن أقَدِّرَ كل التقدير ذلك الرجل من أهل المدينة، الذي تلقاه هادئاً ساكناً، يتفقد باهتمام الإرث الذي آل إليه عن أبيه، ويعنى بالأرض وبزراعتها في كل موسم؛ ليس بالرجل الذي يبدِّلُ أرضه ودياره كل عام، فهو يعلم أن الشجرة التي غرست حديثاً لن تسرع فترسل نحو السماء فروعاً مجللة بالزهر، وأن لا بد له من الصبر والأناة، وكذلك لا بد له من فكر طاهر هادىء رزين، ومن فهمٍ للأمور على حقيقتها، فهو لا يُلقي في الأرض الخِصْبَةِ إلا القليل من البذور، ولا يقتني من الماشية إلا القليل، الذي

يستطيع رعايته والعناية بنِتاجه. فهو يقصر همه على ما يستطيع أن ينهض به.

«وسعيذ. لعمري، ذلك الرجل الذي منحته الطبيعة هذه الدقة من الخُلق، فإن مثله هو الذي يُغذّينا جميعاً، ولِنعْمَ ساكن المدينة الصغيرة، إذ يجمع بين حرفة أهل المدن وحرفة أهل الريف! فمثله لا يحس ذلك العبء الذي ينوء بكاهل الفلاح؛ ولا تزعجه الهموم التي تنغص عيش سكان المدينة، الكثيري المطامع، الذين يريدون أبداً ــ وعلى الأخص نساؤهم وبناتهم ــ أن يقتدوا بمن هم أكثر مالاً وأعلى مرتبة.

«لهذا وجب عليك أن تحمد لفتاك مجهوده الهادىء، وأن تبارك الفتاة التي سيختارها زوجاً له يوماً ما».

○

وحين بلغ القسيس هذا الموضع من حديثه، دخلت الأم وابنها، وقد قبضت على ذراعه، ووقفت بين يدي أبيه وقالت: «كم مرة أيها الوالد. كنا نفكر، ونحن نتحادث. في ذلك اليوم

السعيد. الذي لا بد أن يأتي: يوم يختار هرمن عروسه فيدخل السرور إلى قلبنا جميعاً! ولقد كنا نتذاكر هذا الأمر غيرَ مرَّة: وكنا نشير عليه أحيانا بهذي وأحياناً بتلك؛ كدأب الوالدين إذ يتحادثان. والآن اقترب ذلك اليوم؛ وساقت المقادير إليه العروس وأرَتْها لعينيه. وقد علَّقها قلبه، واستقر عليها رأيه. ألم ندَع له من قبل أن يختار التي يهواها ويرتاح إليها؟ والآن دنَت الساعة، فلقد أحب واختار وصحَّت عزيمته على بلوغ ما يريد، والتي اختارها هي تلك الغريبة التي لِقيَها اليوم. فأعطه إياها؛ وإلا فقد أقسم أن يبقى حياته أعزب.».

وقال الفتى: «أجل! هبني إياها يا أبتي! إن قلبي اختار بصفاء وإيمان؛ وهي أجدر النساء بأن تكون ابنة لك.».

صمت الوالد ولم ينبس بكلمة، فنهض القسيس قائما وقال «إن اللحظة السانحة هي وحدها التي تتحكم في حياة الإنسان وفي مصيره ومآله، وكل عزيمة للمرء، مهما طال فيها تفكيره وتدبيره، فإنها في النهاية وليدة اللحظة التي يقطع فيها برأي وسرعان ما يقطع الحكيم بالرأي الصواب.

«وإنه لمن الخطر، عند الحكم والاختيار، أن يدخل المرء في الأمور ما ليس منها. فيحار اللب، ويضل الفكر.

«إن هرمن فتى ثاقب النظر، وإني لأعرفه منذ الحداثة. ما كان يوما من طباعه — حتى وهو صبي — أن يمد يده إلى هذا وإلى ذاك. وما كان يطلب غير الذي يحتاجه، ثم يحتفظ به ويحرص عليه.

«فلا تأخذكم الحيرة والدهشة الآن، لأن الحادث الذي كنتم ترجونه منذ عهد بعيد قد حدث فجأة! حقيقة ليس للحادث، في الظاهر، ذلك الشكل الذي كنتم تتمنّونه. لكن هذه الأماني نفسها كثيرا ما تحجب عنا الشيء الذي نتمناه. وإنما تنزل الهبات علينا من السماء في ثوبها هي، وفي شكلها، فلا تنكروا هذه الفتاة التي تحرك لها، لأول مرة، قلب ولدكم العزيز وهو ذلك الفتى الطاهر العاقل.

«وأسعد بذلك الرجل، الذي تمد إليه حبيبته الأولى يدها، فلا ينقلب حبه شجنا يضويه ويضنيه، ولعمري إني لأنظر إليه الآن فأدرك أن حظه قد تقرر. إن الحب الصحيح سرعان ما يستحيل به الشاب رجلا رشيدا. وإني لألمح في وجهه العزم

الذي لا ينثني عما بروم. ولئن أبيت عليه هذا فقد قضيت عليه بأن يلبث بقية الحياة ــ وفيها أبهى سني العمر ــ رهين الحزن والكآبة.».

لم يكد القسيس أن ينتهي حتى تكلم الصيدلي وكان طوال هذه الفترة يهم بالكلام. فلا يملك نفسه إلا بجهد وعناء. قال وهو يمعن في التفكير: «رويداً! تعالوا نسلك هذه الكرّة أيضاً طريقاً وسطا. ولنتعجل مع التريث! ذاك كان شعار القيصر أغسطس نفسه، وأنا بودي أن أقوم بخدمة جيراني الأعزاء؛ وأن أستخدم في هذا كل ما لديّ من ذكاء قليل وفهم ضئيل. والشباب، على الأخص، في حاجة إلى من يرشده ويهديه، فدعوني أنطلق الآن لكي أَخْبُرَ الفتاة، وأسأل عنها المجتمع الذي يعرفها والذي تعيش فيه. ولست بالذي يسهل خداعه. وأعرف كيف أنقدُ ما يقال لي، فأطرح منه الزائف.».

فقال الفتى: نِعم ما تصنع أيها الجار، فاذهب واستطلع ما شئت من الأنباء! ووَدِدْتُ لو أنك استصحبت معك مولانا القسيس، فإن رجلين جليلين مثلكما، هما من أعدل الشهود الذين لا يُتَّهمون. ويا أبت ما هذه الفتاة من النساء اللواتي يَجُبْنَ

الآفاق في طلب المغامرات، لكي توقعن في حبائلهن أغرار الشباب، بالحيل والأكاذيب. كلاَّ بل إن هذه الحرب الضروس، التي مزقت العالم كل ممزق، ودكت المغانِيَ والمعاقل، أجل هذه الحرب الشعواء هي التي شرَّدت هذه المسكينة. ألسنا اليوم نرى رأي العين كرام الرجال تحت كلكل البؤس والشقاء؟ ألسنا نرى الأمراء يلوذون بالهرب متنكرين، والملوك يعيشون في منفاهم طريدين؟ وكذلك هي، وهي زين نساء العالمين، قد أخرجت من ديارها فتناست ما هي فيه من محنة وبلية. وجعلت تقوم بأَوَدِ الآخرين. فباتت قادِرَةً في ساعة العجز، مِعْوانةً حين انقطع كل عون.

«لقد عم الأرض حزن هائل، وشقاء شامل؛ فهلا نشأ وسط هذه النِّقَم نعمةٌ واحدة؟ هلاّ أتيحَ لي أن أضُمَّ عروسي، وهي تلك المرأة الأمينةُ، إلى صدري، فيكونَ لي وسط هذه الحروب سرورٌ ونعيم، كما كان لكما من قبل وسط الحريق الهائل؟».

هنالك لم يتمالك الوالد أن فتح فاه وقال: «ليت شعري، كيف انحلت عقدة لسانك أيها الفتى، بعد أن كان قابعاً في فمك

طوال هذه السنين ، لا يتحرك إلا بجهد وعناء؟ فهل كُتِبَ لي أن أقاسيَ اليومَ ذلك الخطب الأليم الذي يتهدد الآباءَ طُرًّا : إذ تَميل الأمُ ميلًا لابنها ، وتناصره وتؤازره في رغبته الملحَّة وإرادته العنيفة ؛ ثم ينحاز إليهما الجار بعد الجار ؛ وقد تحالفوا جميعاً على الوالد .

»وأراني أمسيت عاجزاً عن مقاومتكم جميعاً ، وماذا تجدي المقاومة . فإني أرى مُنْذُ الساعة ، روح العناد والدموع والبكاء .

«فاذهبا إذن واستطلعا الأنباء ! فإن كانت تلك إرادة الله ، فأحضرا الفتاة إلى الدار ، وإلا فما على الفتى إلا التذرُّع بالنسيان والسُّلوان . » .

فصاح الفتى فرِحاً طروباً : «قبل غروب شمس هذا اليوم ستكون ابنتك بين يديك ؛ أجل وسيُنعم عليك بفتاة هي أجل النساء ، وخير ما يتمنى المرء حزماً وعقلا . وإني لأرجو أنها هي أيضاً ستنعم بهذا وتسعد ؛ بل وستشكر لي مدى الدهر أن قد وجدت فيكما أباً وأمّا يتمنى مثلهما أحسن الأبناء وأعقلهم .

«ولن أضيع الآن لحظة أخرى ، بل أبادر فأعدَّ المركبة والجوادين ، ثم أحمل الصديقين إلى موضع الحبيبة ؛ وأتركهما هناك وحدهما ، ليدبِّرا الأمر بما أوتيا من عقل وحكمة ، وإني أعدكم ، بل

أقسم لكم، أن أنزل بعد هذا على حكمهما، وسأمتنع عن مقابلة الفتاة حتى تصبح لي خِطْباً».

قال هذا وخرج عَجِلاً، وجعل الآخرون يُجمعون أمرهم، ويتدبرون الطريق التي يسلكونها في معالجة ذلك الأمر الخطير.

○

ولم يُضع هرمن لحظة؛ بل انطلق إلى الإصطبل، حيث رأى الجوادين، واقفين هادئين، وهما يلتهمان أحسن الشعير والدريس التهاماً؛ فألبس كلا منهما الشكيمة بين الفكَّين ثم أمرَّ اللجم من الحلقات؛ وأحكم وضع السيور الطويلة العريضة؛ واقتاد الجوادين إلى فناء الدار، حيث هيأ الخادم المركبة وأعدها؛ فدفع الجوادين برفق إلى عريش المركبة، وربطهما بإحكام إلى عَمِيدها. وتبوأ مقعد السائق والسوط في يده. وسار بالمركبة إلى باب الدار؛ ولم يكد الصديقان أن يجلسا في مقعدهما الرحيب، حتى انطلقت تعدو بهم. ولم تك إلا لحظة حتى غادرت الطرق المرصوفة، وزايلت المدينة بأسوارها وأبراجها. وقد أخذ هرمن

يسوقها تلقاء ذلك الجسر المعهود، وهو يركض بها ركضاً ، دون رَيْثٍ ولا مَهَلٍ، سواء أكان يجري صاعداً أم منحدراً.

ولم يلبث أن لاح له برج القرية؛ ومن ورائه دورها المتفرقة تحيط بها الحدائق. عند ذلك أخذ يخفف من غلواء الخيل، ويهدىء من سرعتها.

○

وكان أمام القرية مرج يكسوه بساط من العشب الندي. تظلله شجرات من الزيزفون، شامخة جليلة نبتت في مواضعها هذه منذ زمن بعيد: فثبت أصلها في الثرى وامتدت إلى السماء فروعها. وكان هذا المرج ملعبا وملهى لأهل القرية ولما جاورها من البلاد. وكان في وسطه بئر قد حفرت بين الدوح في أرض منخفضة مطمئنة؛ تنزل إليها بدرج فتلقى مقاعد من الحجر مصفوفة حول ينبوع يتدفق منه الماء أبداً، رائقاً صافياً، وقد أحيط بسور صغير، بحيث يسهل الاستقاء من الحوض.

استقر رأي هرمن على أن يريح الجوادين في ظل هذا

الدوح، ففعل، وقال لصاحبيه: «انزلا الآن أيها الصديقان، واذهبا كي تعلما أن هذه الفتاة جديرة باليد التي أمد إليها. أما أنا فما يداخلني في هذا ريب. ولن تنبئاني عنها بجديد. ولو كان الأمر كله بيدي لانطلقت إلى القرية، وطلبت منها أن تتم سعادتي بكليمات قلائل تفوه بها.

«أما أنتما فلن تجدا صعوبة في معرفتها من بين هذه الجماهير فمن الصعب أن يكون لغيرها ذلك القوام العالي. ومع هذا فإني واصف لكما من ثيابها النقية ما قد يرشدكما إليها: لقد لبست قرطقا أحمر، قد نجم من تحته ثدياها. وأحاطت خصرها بنطاق أسود وقد أحكمت شده وجعلت في لبة القميص ثنايا وطيات تحيط بجيدها المستدير كإطار بديع. وفي وجهها البيضاوي تلمحان الصراحة والهدوء، وشعرها مضفور ذوائب عديدة على أسلاك من الفضة. ومن تحت النطاق يتدلى مرطها الأزرق، ذو الثنايا العديدة ويكاد يمس منها حين تمشي عقبيها المليحين.

«لكن هنالك أمر أريد أن أسألكما إياه وألحّ عليكما في أن تجيباني إليه: وهو ألا تخاطبا الفتاة، ولا تدعاها تفهم ما

تقصدان إليه. بل اكتفيا بسؤال الآخرين، وأنصتا للذي يقولون. ومتى اجتمع لديكما من الأنباء ما يهدىء روع الأب والأم فارجعا إليّ، لنتدبر ما نصنع بعد ذلك.

هذا هو الرأي الذي ارتأيت ونحن سائرون إلى هنا.».

بعد أن ختم هرمن كلامه، انطلق الصديقان إلى القرية، فإذا جماهير الناس قد احتشدت في الحدائق والدور. وفي مخازن الغلال، ولهم عجيج وضجيج، وقد اكتظت الطرق بالمركبات بحيث تلاصق العجلة العجلة. فمن رجال تطعم الماشية وهي تخور، والخيل وهي مربوطة إلى المركبات، ومن نساء منهمكات في تجفيف ما غسلن من الثياب على سياج المنازل أو على الأسوار أو في أي مكان. إلى أطفال يلهون باللعب في مياه الجداول.

شق الصديقان في جهد طريقاً وسط هذه المركبات. وجعلا ينظران يمينا ويسارا نظرات المستكشف المستطلع. لعل عيونهما أن تقع على الفتاة التي وصفت لهما، فلم يجدا لها شبيها بين من ألفيا من النساء. ولم يلبثا أن بلغا إلى موضع اشتد به الزحام، وقد اجتمع حول المركبات رجال يختصمون، من حولهم نساء يصحن ويُعْولن. وأقبل شيخ وقور مسرعا، واقترب من

المتخاصمين فلم يكد يبدو ويشير إليهم إشارة الآمر، حتى هدأت الضوضاء وساد السكون فصاح فيهم: «أما كفانا ما حل بنا من الشقاء حتى صرنا عاجزين عن أن نتفاهم فيما بيننا، وأن نتسامح، ونغض الطرف عما قد يرتكبه بعضنا من هفوات؟ لقد يكون أحدكم وسط السعادة، ضجرا متبرما، سريع الغضب، لكن ألم يعلمكم وقع النوائب أن تكفوا عن النزاع والخصام؟ أولى لكم هنا، ونحن في ديار الغربة، أن يسع الواحد منكم أخاه، وأن تتقاسموا ما بأيديكم من رزق حتى تكونوا موضع العطف والرعاية».

فاه الشيخ بهذه الكلمات، وقد أنصت الجميع إليه. ثم أخذوا في إصلاح مركباتهم ودوابهم، وقد لانت عريكتهم، وهدأ ثائرهم.

وسمع القسيس كلام الشيخ، فتبين في وجهه ملامح القاضي العاقل الرزين، فتقدم إليه وخاطبه في جد قائلا: «إن الشعب في زمن الرخاء يعيش خلي البال، يتغذى مما تنتجه أرض سخية واسعة تخرج له الهبات الشهية على مدى الشهور والسنين. هنالك يجري كل شيء وفق المرام، فيحس كل امرىء في نفسه أنه

فوق سائر الناس فضلا وعقلا . وما دامت الأمور تجري في مجراها فإن أحرم الناس وأذكاهم لا بلقى من التقدير أكثر مما يلقى سواه .

«ولكن إذا نزل الشقاء، فاضطربت لوقْعِه سبُل الحياة، وخُرِّبت المنازل والدور، وهلكت الحدائق والزروع، وسيق الرجال والنساء من مسكنهم الأمين، وقذف بهم إلى العراء: يختلف عليهم نهارٌ قاسٍ وليل مخيف، فهنالك ينظر الناس مِن حولهم ليبحثوا عن أوفرهم عقلا، وأعلاهم رأياً، الذي يستطيع أن يكلمهم فلا تذهب كلماته أدراج الرياح.

«قل لي يا والدي! إنك من غير شاك القاضي الذي يحكم بين هؤلاء الشريدين، ولهذا استطعت أن تهدئهم من غير عناء! أجل، وإني أراك شبيهاً بأولئك القادة، في العصور القديمة، الذين كانوا يقودون رعاياهم الطريدة وسط الصحاري القفار[1]، وكأني الآن إنما أخاطب يوشع أو موسى.».

فأجاب القاضي وهو بلقي عليه نظرات حادة جادّة:

---

(١) أي مثل موسى عليه السلام حين قاد جموع بني إسرائيل في الصحراء ما بين مصر وفلسطين.

«حقاً أن زماننا هذا ليشبه أغرب العصور التي حدثنا عنها التاريخ؛ سواء أكان تاريخ دين أم تاريخ دنيا. وإن الذي عاش من الأمس إلى اليوم فكأنما عاش عدة سنين، لكثرة ما تعاقب من الحادثات في هذه الفترة القصيرة. أما إذا حاولت أن أذكر ما قبل ذاك بزمن قصير، فإني يُخيل لي أني بت أحمل على كاهلي عبئاً ثقيلا من السنين. وأعجب أن لم تزل فِيَّ بقية من القوة.

«أجل إننا نستطيع حقاً أن نقارن بين أنفسنا وبين ذلك الشعب[1]، الذي لاحت له النار المقدسة في ساعة المحنة. فكذلك نحن قد شاهدنا الروح القدس وسط السحاب والنيران.».

وكان القسيس يود أن يمضي في حديثه مع القاضي، ليستطلع أنباءه وأنباء قومه. فقال له رفيقه همساً: «امض في حديثك مع القاضي، وسق إليه حديث الفتاة؛ أما أنا فسأطوف بالمكان قليلا باحثاً عنها؛ ثم أعود إليك بعد أن أراها.» فأشار القسيس موافقاً. وانطلق الآخر بين الأسوار والحدائق، مستطلعاً باحثاً.

---

(١) شعب بني إسرائيل.

النشيد السادس

كليو[1] KLIO

(الهة التاريخ)

(١) في هذا الفصل إشارات إلى حوادث الثورة الفرنسية وإلى ما بعثت من الآمال في النفوس وما خيبت من الرجاء. ولهذا فإن اسم كليو إلهة التاريخ ملائم لهذا الفصل كل الملاءمة.

العصر

أخذ القسيس يسأل ذلك القاضي، الغريب الدار، عما قاسته الجماعة، وعن الزمن الذي قضته في هذا التشرد. فأجابه الآخر: «إن آلامنا ليست بالشيء الحديث العهد، فقد شربنا صاب هذه السنين جميعاً، وكان أشد المصائب وقعاً علينا أن رأينا أبهى آمالنا وأحلاها تتهدم وتتحطم. ومن ذا الذي يستطيع أن ينكر أن نفسه أخذت تسمو وتعلو، وأن صدره الحر أخذ يخفق خفقاناً أشد طهرا وصفاء، حينما أشرقت علينا الشمس الجديدة بأشعة براقة تسطع وتلمع، وحينما استهوى مسامعنا الكلام عن

حقوق الإنسان، التي هي ملك للناس جميعاً، وعن الحرية التي تعلي النفس، وعن مبدأ المساواة المجيد؟.

«هناك غدا كلّ يؤمل أن سيحيا حياته لنفسه[1]، وكأنما تلك السلاسل والأغلال، التي قيدت بها الأنانية والكسل[2] الكثير من الأمم، قد تكسرت أخيراً.. ألم تكن أنظار الشعوب جميعاً متجهة في تلك الأيام المفعمة بالحوادث إلى عاصمة العالم[3]، التي استحقت هذا اللقب العظيم في ذلك الوقت أكثر مما استحقته في أي عصر آخر؟ ألم تكن أسماء أولئك الرجال، الذين كانوا أول من أذاعوا الرسالة ونشروها[4] تضارع أسماء أجل الناس قدرا، ممن غدا لهم مكان بين النجوم الزاهرة؟ ثم ألم يكن أثر هذا كله أن بات كل إنسان يحس أن قد ارتقى: قلبا وروحا ولسانا؟.

---

(١) يحيا من أجل نفسه لا من أجل الملوك والقسس والنبلاء.

(٢) الأنانية والكسل رمز للطبقات الحاكمة التي تسخر الشعب لخدمتها.

(٣) يريد باريس.

(٤) أمثال ميرابو ولافايت.

«ونحن الجيرة الأقربون[1] كنا أول من اشتعلت نار الحماس في نفوسهم... من بعد هذا دارت رحا القتال، وجعلت كتائب الفرنسيين تزحف على ديارنا، ولكن كان يبدو لنا أنهم مقبلون علينا كأصدقاء. وهكذا ألفيناهم، فلقد كانوا جميعا ذوي نفوس عالية، فجعلوا يغرسون بيننا بهمة وعزيمة أشجار الحرية اليانعة، وأعلنوا أن كلا له حقوقه المرعية وحكومته التي يرضى ويختار. وقد طرب الجميع سرورا، شبابا وكهولا، وجعلت حلقات الرقص تدور من حول الأعلام الجديدة. وهكذا تمَّ لهؤلاء الفرنسيين اللبقين اكتساب قلوب الرجال بهمتهم وعزمتهم، وقلوب النساء برشاقتهم التي لا تقاوم، حتى لقد سهل علينا عبء الحرب على فداحته، لأن الأمل كان يسدل دون المستقبل ستورا، فلا تقع أبصارنا إلا على السبل الجديدة التي بين أيدينا.

«لقد تعلم أن الزمن الذي يقضيه العروس وخطيبه، يغشيان المراقص والملاعب، وهما بانتظار يوم العرس، من أسعد الأزمنة وأرغدها؛ لكن كان أسعد منه ألف مرة ذلك الزمن،

---

(١) سكان الأقاليم الألمانية الملاصقة لفرنسا الواقعة غرب نهر الرين.

الذي كان المرء يرى فيه أن أقصى ما كان يطمح إليه بصره، بات قريب المنال جدا. فهناك انحلت عقدة الألسنة، وأطلق الشيوخ والشبان للقول العنان، معبرين عن كل فكر سام وإحساس كريم[1].

«لكن لم تلبث السماء أن غشيتها السحب، ونهض جنس فاسد ليقبض على زمام الحكم[2]، وهو عاجز عن أن يفعل الخير، فأخذ أفراده يذبح بعضهم بعضا، ويستبدون بجيرانهم وإخوانهم، وبعثوا إلينا شرذمة من الأنانيين الجَشِعين. فأكب كبراؤهم على سلبنا كل شيء يستحق السلب، وأكب صغراؤهم على النهب، فلم يدعوا حقيراً أو تافهاً إلا استولوا عليه، وما كان خوفهم إلا أن يسرفوا فلا يتركوا شيئا إلى الغد.

«فلم يمض زمن طويل حتى حل بالناس الشقاء، وفي كل يوم يشتد بنا الظلم ويزداد. وكانوا في عنفوان عزهم ونصرهم، فلم نجد من ينصت إلى استغاثاتنا. فاستولى الغيظ والغضب حتى

---

(١) إشارة إلى الذين تغنوا بمدح الثورة الفرنسية في أول عهدها من شعراء الألمان أمثال كلوبستك Klopstock.

(٢) إشارة إلى جماعة اليعاقبة.

على أعذب الناس روحا. وأقسم الكل ليَثْأَرَنَّ لما نزل بالبلاد من العار، ولتلك الآمال التي خابت خيبةً مضاعفة. وكان الجَدُّ حليف الألمان. فعاد الفرنسيون وارتدوا متقهقرين. عند ذلك جعلنا ندرك حقيقة أهوال الحروب، فإن الجيش الظافر المنتصر قد يبدي شيئا من الكرم والمجاملة، أو على الأقل يتظاهر بذلك، فلا يريد أن يبطش بالذين ظفر بهم بل يفضل أن يبقي عليهم، وأن يستخدمهم كل يوم فينتفع بهم وبما ملكت أيديهم. أما المنهزم الهارب فلا يعرف شرعا ولا عُرفاً، أقصى بغيته أن ينجو من الموت. فهو يلتهم كل ما يقع في يديه من غير تدبُّر ولا تبصُّر. وتطيش أحلامه ويدفعه اليأس إلى ارتكاب كل إثم، فلا يرى لشيء قدسا ولا حرمة، بل يسلب كل ما يقع تحت بصره، وتدفعه الشهوة الوحشية لأن ينقض على النساء، فتنقلب لذاته فظاعة وإجراما، ويبصر الموت ماثلا أمامه في كل مكان، فيعيش لحظاته الأخيرة عيشة الوحوش الضارية. يسره أن يرى الدماء، وأن يسمع أنين المعذبين.

«هنالك جاشت برجالنا مراجل الغضب، وأرادوا أن يثأروا لما فقدوه، وأن يدافعوا عما بقي، فحمل الجميع أسلحتهم، وقد

ازدادت شجاعتهم لما رأوه من سرعة فرار الهاربين، ومن وجوههم الشاحبة، ونظراتهم الفزعة. فجعل ناقوس الحرب يدق دقات متصلة لا تنقطع. ولم يهدىء من ثورة غضبهم خوف الأخطار التي هم مقبلون عليها، ففي لمحة الطرف انقلبت آلات الزراعة إلى أداة حرب، فإذا الأمشاط والمناجل تقطر نجيعا، وإذا الأعداء تتساقط أشلاؤهم بلا رأفة ولا رحمة. فأما الشجعان فكانوا يفتكون بهم جهاراً؛ وأما الجبناء فيقتلون غيلة وخلسة. إني لأرجو ألا أرى بني الإنسان في مثل تلك الحال من الفوضى والانحطاط مرة أخرى؛ ولَمَنْظَرُ الوحش الضاري خير من منظرهم.

«فعلام إذن كل هذا الكلام عن الحرية كأنما الناس قادرون حقا أن يحكموا أنفسهم؟ إنهم لا يكادون أن يُرخى لهم العنان، وتزول من أمامهم العقبات، حتى تظهر فيهم الغرائز الدنيئة، ويختفي العدل والإنصاف في الزوايا والأركان».

فقال القسيس: «أيها الرجل الجليل! لست بلائمك على إنكارك لبني الإنسان، بعد الذي عانيته من شرورهم، وما ارتكبوه من تدمير وتخريب. على أنك لو ألقيت نظرة أخرى على تلك الأيام الحزينة، فإنك واجد فيها من غير شك كثيرا من صالح

الأمور، وكثيرا من جليل المشاعر، التي كانت كامنة في أعماق القلوب حتى أثارها وقع الخطوب. فإذا الشقاء الداهم والخطر المحدق يظهران الإنسان في صورة المَلَك، وإذا هو للآخرين بمثابة إله يرعاهم ويحميهم.».

فتبسم الشيخ القاضي ضاحكا وقال: «إنك تذكّرني تذكير الحكيم العاقل، كما يذكرون صاحب دار اشتعلت بها النيران فدمرتها، فيذكرونه بما فيها من الذهب والفضة، مما قد أذابته النار، ولبث مبعثرا بين أنقاض الدار. وفي الحق إنه لنَزْرٌ يسير، لكنه على قلته ثمين. فيحفر المسكين باحثا عنه، ويفرح لما قد يجده منه. وأنا كذلك أرجع بأفكاري مسرورا إلى تلك الأعمال الطيبة القليلة، التي لم تزل تعيها الذاكرة.

«أجل، لست بمنكر أني شاهدت الذين بينهم عداوة ينسون عداوتهم، كي يتعاونوا على إنقاذ المدينة من براثن الشقاء. ورأيت كيف تنهض الصداقة وحب الأبناء والآباء فتأتي بما قد يعد ضربا من المحال. وأبصرت كيف ينقلب الشاب رجلا في لمحة الطرف، والشيخ اليَفَن يحول فتى يافعا. بل ورأيت الطفل

يعود شابا؛ وذلك الجنس، الذي ألفنا أن ننعته بالضعف، قد راح يبدي من البسالة والبأس ما يثير الإعجاب.

«ولأقص عليك أولا ذلك العمل الجميل، الذي قامت به فتاة كريمة من خيرة العذارى: تخلفت هذه الفتاة في مزرعة كبيرة ومعها كثير من الفتيات. وقد ذهب الرجال جميعا لمحاربة الأعداء، وبينما هن كذلك أغارت على المزرعة شرذمة من أراذل الناس، فنهبوا المزرعة ثم دخلوا على النساء الدار. فرأوا تلك الحسناء وقوامها المعتدل، والفتيات الأخريات، وهن أحق بأن يُدْعَين طفلات. فتملكتهم الشهوة الوحشية، واندفعوا يريدون مهاجمة الصغيرات وهن يرتعدن فرقا، والغادة الباسلة. لكنها لم تلبث أن انتزعت من جانب أحدهم سيفا وأجهزت عليه بضربة عنيفة، فخر تحت قدميها مضرجا بدمائه... ثم لم تزل تضربهم ضربات الرجل القوي حتى كفت أخواتها شرهم؛ ولاذ اللصوص بالهرب، بعد أن جرحت منهم أربعة. بعد ذلك أغلقت الدار، وبقيت والسلاح في يدها تنتظر المدد.».

حين سمع القسيس هذا الإطراء لتلك الفتاة، داخل قلبه الأمل من أجل صديقه، وهم بالسؤال عن مصيرها، وعما إذا

كانت وسط هذا الجمع الغفير من اللاجئين. لكن في تلك اللحظة دخل الصيدلي مسرعا، وجذب القسيس من ردائه وقال له همساً: «قد عرفت الفتاة بعد لأي، من بين مئات من النساء، وهي كما وصفت لنا تماما، فتعال معي كي تراها رأي العين، وليصحبنا هذا القاضي لنستطلع منه بقية أخبارها.». والتفتنا فإذا القاضي قد استدعاه قومه ليستفتنوه في شؤونهم ويهتدوا بهديه. وبرغم هذا سار القسيس وراء الصيدلي حتى بلغا الى فجوة في السياج، فقال هذا وهو يشير بيده: «أنظر ها هي الفتاة! سرعان ما عرفت كيف تلف المولود لفاً محكما. وأنا أذكر تماماً القطن القديم، وغطاء الوسادة الأزرق، وهذا كله مما كان في حقيبة هرمن، وقد أحسنت إذ أحكمت تحويل تلك الهدايا بسرعة إلى حالتها الجديدة، وهذه دلائل على الفتاة لا تقبل الشك، والصفات الأخرى واضحة أيضاً كل الوضوح. فهاك القرطق الأحمر، يستر صدرا قد نجم، وهاك النطاق الأسود قد أحكمت عقده حول خصرها، وقد جعلت في لبة القميص ثنايا وطيات بديعة تحيط بجيدها المستدير كإطار جميل. وفي وجهها البيضاوي تلمح الصراحة والهدوء، وشعرها مضفور ضفائر عديدة على

أسلاك من الفضة. وبرغم أنها جالسة فإننا نستطيع أن نتبين قدها الممشوق، وهو ذا مرطها الأزرق، ذو الثنايا العديدة، يلفها من خصرها إلى عقبيها المستديرين.

«هذه هي من غير شك، فتعال نستفسر عنها لنعلم هل هي ذات فضل وفضيلة، وهل تحسن إدارة المنزل؟».

فجعل القسيس يختبر الفتاة بثاقب نظره. ثم قال: «لعمري ليس بعجيب أن قد خلبت الفتى وسحرته. فإن عين الناقد الخبير لا تقع منها إلا على كل ما يعجب. سعيدٌ من منحته الطبيعة الجمال الكامل، فبات محبوباً حيثما نزل، ولن يكون غريباً، مهما نَبَتْ به الدار. إذ يود الكل أن يقترب منه، وأن يلبث بقربه زمناً طويلا. ولئن صاحبَ جمالَ الخَلْق هذا حسن الخُلُق. فإني أؤكد لك أن فتانا هرمن قد أصاب عروسا ستملأ أيام حياته سعادة ونعيما، وستقف مخلصة وفية إلى جانبه في كل حين. وأكبر ظني أن هذا الجسم الكامل لا ينطوي إلا على روح طاهرة، وهذا الشباب القوي سيفضي على مدى السنين إلى شيخوخة سعيدة.».

فأجاب الصيدلي وهو يمعن في التفكير: «رغم هذا، كثيرا

ما يخدع المظهر، وأنا لا أريد أن أثق بما قد يبدو للعين. وكثيرا ما جربت صحة المثل القائل: «لا تركن إلى صديقك الجديد كل الركون قبل أن تلعق وإياه صاعا من الملح[1]». فالزمن وحده كفيل أن يريك مبلغ صداقته، ومنزلتك عنده. دعنا إذن نستطلع أمرها من أناس صالحين يعرفونها، ويستطيعون أن يقصوا علينا من سيرتها شيئا.».

فقال القسيس: «وأنا أيضا أفضل سلوك طريق الحذر، فنحن لا نخطب الفتاة لنفسنا. واختيار فتاة من أجل صديق أمر يتطلب التروي.».

ثم انطلقا نحو القاضي الهمام، وكان يسير تلقاءهم، منشغلا بما لديه من الأعمال، فأقبل عليه القسيس العاقل، وتكلم إليه محترسا، فقال: «إنا رأينا في الحديقة المجاورة فتاة جالسة تحت شجرة تفاح، تصنع لطفل رضيع ثيابا من قطعة قطن قديمة لعلها أهديت إليها، وقد أعجبنا قوامها المعتدل وما

---

(١) كناية عن تجربته في الشدة.

يبدو عليها من الجرأة والبسالة؟ فحدثنا بما تعلمه عنها، وما سألناك إلا عن نية طيبة.».

فتقدم القاضي قليلا لينظر إلى الحديقة، ثم قال «إني عرفتك أمر هذه الفتاة من قبل، حين قصصت عليك ذلك العمل المجيد الذي قامت به هذه العذراء بعينها، حين استلت السيف ودافعت عن نفسها وعن صواحبها، أجل هذه هي، لا تكاد تلقي عليها نظرة حتى ترى ما وهبتها الطبيعة من قوة، وهي على قوة جسمها طيبة القلب، فقد كانت تعول شيخا هرما من أقاربها، فلم نزل تعنى بأمره حتى تخرمته المنون، وقد أودى به حزنه على المدينة، وما نزل بها من البلاء وما يتهدد ثروته من الأخطار.

«وكذلك قابلت بهدوء وجلد كارثة أخرى نزلت بها، إذ فقدت خطيبها وهو فتى ذو إباء وشمم، اشتعلت في نفسه نار الحماسة من أجل المبادىء السامية الأولى، وأراد أن يجاهد بنفسه في سبيل الحرية، فذهب إلى باريس. ولم يلبث هناك طويلا حتى قتل قتلة شنيعة. وهو يقاوم الاستبداد والدسائس كما كان يفعل في بلده.».

فلما أتم القاضي حديثه شكره الصديقان، واستأذناه في

الانصراف، وأخرج رجل الدين قطعة من الذهب (وقد أنفق منذ سويعات كل ما بالكيس من قطع الفضة، إذ كان يعطي جماهير اللاجئين كلما مروا به) وقدمها إلى القاضي وقال: «تفضل بتقسيم هذا الشيء الزهيد بين المحتاجين، وبارك الله في هذه الهبة!».

فأبى القاضي أن يأخذها منه وقال: «لقد استطعنا أن ننجو بشيء من النقود وبكثير من الثياب والأمتعة، وإني لآمل أن نرجع إلى أوطاننا، قبل أن ينفد ما بأيدينا.».

لكن القس أجابه وهو يضع القطعة في يده: «أجْدر بكل إنسان في هذا الزمن ألا يحجم عن العطاء، وأجدر بكلّ ألا يرد ما يُقَدَّمُ إليه عن سماحة، فما يدري أحد في يده اليوم شيء، إلى متى يبقى الذي بيده، وما يدري أحد اليوم كم يطول به السير والطواف في ديار الغربة، مقْصيً عن المزارع والحدائق التي كانت تؤويه وتغذيه.

وقال الصيدلي، وكأنما أهَمّهُ الأمر: «أجل لعمري ولو كان في جيبي نقود لمنحتك إياها، كبيرة وصغيرة، إذ لا شك عندي أن في عشيرتك من هم في حاجة إليها. ومع هذا فإني لن أتركك

تمضي من غير هبة أهبك إياها، حتى ترى نيتي الطيبة، ولو أن الصنيع دون النية بكثير.» .

ثم أخرج من جيبه كيسا من الجلد المطرز كان يحفظ فيه ما لديه من التبغ، وجعل يفتحه بتدقيق وتمهل. فإذا فيه ما يكفي لملء (بيبات) قلائل. فقدمه إلى القاضي وهو يقول: «إن الهبة لعمري قليلة» . فرد الآخر بأن المسافر يرحب أبدا بما يقدم إليه من جيد التبغ.

فأخذ الصيدلي يمدح تبغه ويثني عليه، لكن القس لم يدعه يطيل، بل اجتذبه وابتعدا عن القاضي، وقال له: «أسرع بنا فإن الفتى ينتظرنا في قلق، ويجب أن نسمعه النبأ السار بأسرع ما يمكن» .

فانطلقا مسرعين حتى إذا كانا على مقربة من الشاب، ألفياه متكئاً على مركبته تحت شجرة زيزفون، وقد جعلت الخيل تضرب العشب بسنابكها. وهو ممسك بلجمها وممعن في التفكير. وكان ينظر أمامه بعيداً، فلم يحس قدوم الصديقين، حتى نادياه حين اقتربا، وأشارا إليه إشارات سارة. وكان الصيدلي قد شرع يخاطبه من بعيد. ولكنهما لم يلبثا أن وصلا إليه، وعند

ذلك أمسك القسيس بيد الفتى وسبق زميله إلى الكلام فقال: «سعد جدُّك أيها الفتى! إن عينك الطاهرة وقلبك الخالص قد أحسنا الاختيار. فلتسعد ولتسعد بك حليلة شبابك. وهي لعمري جديرة بك حقا. فتعال إذن وأعد المركبة، ولنعد إلى القرية راكبين. وهنالك فلنخطبها ثم نذهب بها إلى الدار».

كان الفتى منصتا إلى كلمات الرسول، وبرغم أنها عبارات سماوية مقدسة وباعثة للأمل، لم تبد على وجهه علامات السرور، بل تنهد من أعماق صدره وقال: «لقد أتينا إلى هنا على عجل، ولكني أخشى أن سنركب إلى دارنا في شيء من الفشل، فنرجع متباطئين. لقد أخذت الهموم تملأ قلبي وأنا أنتظركما ها هنا، وأخذ يستحوذ عليّ اليأس والقلق وكل ما يضني أفئدة المحبين. فهل تحسبان أن مجرد ذهابنا إلى هناك كافٍ لأن تقبل الفتاة علينا وتتبعنا، لأننا نحن ذوو يسار، أما هي فتعاني الفاقة والتشرد، لكن الفقر نفسه — إن أصاب غير أهله — يبعث في النفس الشمم والكبرياء؛ وهذه الفتاة جمة النشاط. وقد تدرعت بالقناعة، وبهذين السلاحين يصبح العالم في قبضة يدها.

ثم أتحسبان أن يكون لامرأة مثل هذا الجمال والكمال،

فلا يفتتن بها الشباب ويهيم بها؟ أنظنان أنها أغلقت قلبها حتى الساعة، فلم ينفذ إليه حبٌّ بعد؟ أولى لنا إذن ألا نركب إلى هناك. بل نعود ساحبين ثياب الخجل. اركضن على مهل إلى الدار. فإني لأخشى أن بعض الفتيان قد استحوذ على قلبها ويدها، وأنها أقسمت له يمين الإخلاص. فأي اضطراب سيعروني إذا وقفت بين يديها في مثل تلك الحال؟».

همّ القسيس أن ينطق بكلمات يسليه بها، لكن الصيدلي بثرثرته المعهودة سبقه إلى الكلام فقال: «في الأيام الخالية لم يكن هذا الشيء مما يحيرنا. إذ كان لكل أمر ذي خطر نظامه وطريقته، فبعد أن ينتقي الوالدان عروسا لفتاهما، يرسلان سرّا في طلب أحد أصدقاء الأسرة. ويبعثان به إلى والدي العروس ليقوم بأمر الخطبة. فيبادر هذا الصديق، وقد أخذ زينته كاملة في يوم الأحد. وينتظر إلى ما بعد الغداء بقليل، ثم يزور ذلك الرجل الجليل في داره. وهنالك يتحدث إليه بعبارات ودية عامة، وهو يعلم كيف يحوّل مجرى الحديث متى شاء، فبعد كثير من اللف والدوران يجيء ذكر الفتاة فيثني عليها، ثم يثني على الأب. وعلى الأسرة التي أرسلته اليوم، ثم تبدر منه كلمة حكيمة تشير إلى

الموضوع، ويلمح المخبر العاقل ما هنالك من حسن نية فيأخذ في الترح والإيضاح. وإذا افترضنا أنه لم يلق نجحاً ولا توفيقاً، فلن يكون في هذا غضاضة. أما إذا تكلل مسعاه بالفوز فسيصبح لهذا الوسيط المكان الأول في كل حفلة للأسرة. لأن العروسين يذكران مدى العمر أن أول من عقد الرّباط هو تلك اليد الماهرة: يد الوسيط.

«أما الآن فإن هذا أصبح كسائر العادات الصالحة، يعد خارجا عن المألوف، وأصبح كلٌّ وسيط نفسه، فإذا رفضته العروس، فليتناول فشله بيده، وليقف موقف المضطرب الحائر أمام الفتاة.».

فقال الفتى، ولم يسمع من كلام الصيدلي إلا القليل؛ بل كان يفكر حتى استقر رأيه على قرار حاسم: «مهما يكن من أمر، فإني ذاهب بنفسي لأعلم من فم الفتاة مصيري ومآلي. فإن لي بها ثقة قلما وضع مثلها رجل في امرأة. وأنا أعلم عِلم اليقين أن كل ما تقوله حسن وحكيم. ولئن قدر لي أن سيكون هذا اللقاء الأخير، فإني أود رغم هذا أن أقابل مرة أخرى تلك النظرات الصريحة من تلك العيون السوداء؛ وإذا لم يتح لي أن

أضمها إلى قلبي ، فلا أقل من أن أشاهد مرة أخرى ذلك الصدر وتلك الأعطاف ، التي يشتهي ذراعاي تطويقها ، أجل أريد أن أرى مرة أخرى ذلك الفم ، الذي تسعدني منه القبلة وكلمة (نعم) مدى الحياة ، والذي تشقيني منه كلمة (لا) مدى الحياة .

«فدعاني إذن وحدي ! وما من داع إلى انتظاري بل ارجعا الساعة إلى الوالد والوالدة ، كي يعلما منكما أن ابنهما لم يخطىء وأن الفتاة جديرة بكل خير . فاتركاني وحدي وسأعود مختصرا الطريق ، سالكا ذلك الممشى المنبسط فوق الكثيب إلى شجرة الكمثرى ، ثم أمر من وسط الكرمة حتى أصل إلى دارنا .

»فهل يتاح لي أن أرجع مسرعا ومعي الحبيبة ؟ أم أعود فريدا وحيدا أجُرُّ رجلْيّ جرّاً في تلك الطريق ، ثم أدخل الدار التي لن أدخلها منشرح الصدر أبدا ؟..» .

قال هذا وناول اللجام القسيس . فأمسكه هذا إمساك الخبير كابحاً جماح الجوادين ، وقد علا أشداقهما الزبد . ثم صعد المركبة مسرعا ، وجلس في مكان السائق .

لكن رفيقه الحازم ، المتبصر في العواقب ، جعل يتردد

ويقول: «إني أيها الصديق أأتمنك على نفسي وروحي وعقلي، عن سرور ورضى. ولكن إخال أن الجسد والعظام ليست في مأمن من عاديات الزمان، إذا كانت اليد المقدسة هي القابضة على هذه اللجم الدنيوية الفانية.».

فقال له الآخر، وهو يحاوره مبتسما: «ادخل إلى المركبة بسلام، وأتمن على جسدك وروحك على السواء! كن مطمئنا، فإن هذه اليد أَلِفَتْ منذ عهد بعيد أن تقبض على اللجم، والعين قد مَرِنت على سلوك أقوم الطرق. وقد تعلمنا في استراسبورغ كيف نسوق المركبات، حين ذهبنا إلى هناك في صحبة ذلك البارون الصغير.[1] وفي كل يوم كنت أتولى قيادة المركبة، فتمرق بنا من وسط الباب الكبير المرجع للصدى، وتعدو بنا في طريق تربة، إلى المروج، وإلى الغابات البعيدة، وسط الجموع الغفيرة من الناس الذين لا عمل لهم غير التنزه طوال النهار.» .

عند ذلك تجلد الصيدلي، بعض الشيء، فصعد المركبة

---

(١) كثيرا ما يبدأ القسس حياتهم ــ خصوصا في الزمن الذي نحن بصدده ــ كمؤدبين لأبناء الأشراف.

وجلس فيها جلسة الرجل الحازم المتأهب في كل لحظة للوثوب إلى الخارج .

وانطلق الجوادان تلقاء الدار . وبهما إلى الاصطبل شوق . فكان يتصاعد من تحت سنابكهما سحب من العِثْيَرِ المثار .

وقد وقف الفتى طويلا يحدق في الغبار إذ يصعد ، ثم يتفرق في الهواء ذرة ذرة ، وهو تائه العقل حائر اللب ، لا يفكر في شيء .

دروتيه

لقد يقف ابن السبيل عند الغروب ، ينعم النظر في ذكاء ، ثم يلقي عليها وهي آخذة في الاختفاء بسرعة نظرة عجلى ، فلا يزال يرى صورتها تهتز وسط الأدغال القاتمة ، وفوق الجنادل والصخور ؛ وحيثما اتجهت نظراته ، فثمَّ وجهها يلمع مهتزا في ألوان بديعة ... كذلك كان هرمن . فحيثما نظر رأى صورة الغانية الفتانة تمر أمامه على مهل ، وكأنما تسير في الممر الضيق الذي يخترق مزرعة القمح.

لم يلبث أن أيقظ نفسه بعنف من هذه الرؤيا التي أدهشته ؛ ثم أدار وجهه نحو القرية ، فازدادت دهشته . إذ رأى

القوام العالي لتلك الفاتنة مقبلا نحوه. فأنعم النظر، ورأى أن هذا لم يكن وهما، وأن هذه هي حقا، قد أقبلت وهي تحمل في يديها جرتين، قد أمسكت بقبضتيهما، وجعلت كبراهما في اليمين والصغرى في اليسار، وهي تمشي بجد ونشاط نحو الينبوع.

تقدم هرمن نحوها مسرورا، وقد بعث منظرها في قلبه القوة والعزم. وخاطبها، وقد تولاها شيء من الدهشة، فقال: «هأنذا ألقاك مرة أخرى، أيتها الغادة الباسلة، دائبة على عمل جديد تساعدين به العاجزين وتحيين به النفوس البائسة؛ لكن حدثيني! كيف قصدت وحدك إلى هذا الينبوع على بعده. وأكثر من بالقرية يكتفون بما هنالك من الماء؟ ولو أن هذا الماء حسن المذاق، مفضل على سواه؛ وكأني بك ستحملينه إلى تلك المريضة، التي أنقذتها بما بذلت لها من رعاية وعناية.

فحيته الفتاة أحسن تحية، وقالت: «لقد جوزيتُ أحسن الجزاء على أن قطعتُ كل هذا الطريق إلى الينبوع، بأن لاقيت الرجل الكريم، الذي أمطر علينا الهبات، وإن النفس لتسر لمرأى المحسن، كما يسرها منظر الإحسان، فتعال وانظر بنفسك إلى

الذين نَعِموا بما منحتّهم، وتلقَّ منهم، على صنيعك، أطيب الحمد والثناء.

وإنك لتراني وقد قطعت هذا الطريق، لكي أغترف من هذا الينبوع الذي يتدفق منه الماء صافياً طهوراً، فما ذلك إلا لأن الناس بإهمالهم قد كدروا كل ما بالقرية من ماء، وتركوا الخيل والثيران تخوض في الينبوع الذي يسقي القرية وأهلها. وكذلك لوثوا جميع الأحواض بما غسلوا وما رحضوا فيها. حتى لم تعد هنالك بئر واحدة نظيفة، لأن كل فرد لا يعنيه إلا أمر نفسه، ويريد أن يقضي حاجته بسرعة، من غير أن يكترث لحاجات الناس.

ولم تكد تتم حديثها، حتى أخذت تنزل الدرجات وهرمن إلى جانبها؛ ثم جلسا، كلاهما، على الجدار الصغير حول الينبوع. وانحنت فوق الماء لتغترف منه. وأمسك هو بالجرة الأخرى ومال فوق الحوض ليغترف. فأبصرا صورتيهما.

وقد ارتسمتا في زرقة السماء الصافية المنعكسة على صفحة الماء. وهنالك نظر إليها ونظرت إليه، وحياها وحيته.، في تلك المرآة الصافية المصقولة.

وقال لها، وقد سر وطرب: «ناوليني شربة! فأمسكت له جرتها حتى شرب. ثم استراحا قليلا وقد اتكأ كل منهما على جرة. وقالت هي للصديق: «إني أراك هنا، بعيداً عن الموضع الذي قابلتك فيه، بلا خيل ولا مركبة. فكيف وصلت إلى هذا المكان؟» .

فأطرق هرمن مفكراً، ثم رفع رأسه، وجعل يحدق في عينيها، بنظرات الصديق المخلص؛ فأحس كأنما قد عاد إلى قلبه الهدوء والطمأنينة. ولكن كان يرى من المستحيل أن يحدثها حديث الهوى. إذ لم يلمح في نظراتها الحب، بل العقل والروية يأمرانه أن يتكلم بعقل وروية. فملك زمام نفسه بسرعة. وقال: «دعيني أحدثك وأجبك صراحة على سؤالك: إني جئت إلى هنا من أجلك أنت، ولست أرى داعياً لأن أخفي عنك هذا. إني أعيش سعيدا مع والدين برّين، أعاونهما في شؤون الدار، وفي إدارة العقار. إذ ليس لهم من الأبناء غيري. وأعمالنا متعددة الشكول، متشعبة النواحي. وأكبر ما أعنى به المزرعة، أما والدي فيدير المنزل بجد وهمة. والوالدة النشيطة تعمل أبدا وتدأب في سائر مرافق الحياة. وما إخالك إلا قد مارست هذه الأعمال

جميعا . وعرفت ما تسببه الخادمات لربة الدار من عناء، بالخيانة حينا وبالرعونة أحياناً ، فتضطر لأن تبدل خادما مكان خادم . وهي بهذا إنما تبدل نقصا مكان نقص، وعيوبا جديدة مكان العيوب القديمة . لهذا كانت أمي منذ عهد بعيد تتمنى أن ترى في الدار فتاة تعاونها ، لا باليدين فحسب ، بل بالقلب والضمير أيضا . فتكون لها عوضا من ابنتها التي سلبتها المنون إياها من قبل .

«واليوم قد أبصرتك إلى جانب المركبة ، ورأيت الساعدين القويين ، والصحة البادية في كل جارحة من الجوارح ، وسمعت منك الألفاظ الممتلئة عقلا ، تملكني الدهشة والإعجاب ، وعدت مسرعا إلى الدار . وجعلت أمدح هذه الغريبة بالذي تستحقه أمام الوالدين والأصدقاء . والآن عدت إليك لأحدثك بالذي يبغونه منك .. اغفري لي ترددي في الكلام وحيرتي .» .

فقالت له : «لا تخش ضيرا في أن تتمّ حديثك ، وليس في الذي ستقوله ما يشينني . وإني لم أحس ، وأنا أصغي إليك غير عاطفة الشكر ، فقل بصراحة ما تريد أن تقوله ، فليس فيه ما يزعجني . إنك تريد أن تدعوني لأكون لوالديك خادما أمينة ، كي أعنى بشؤون منزلكم ، الذي أعددتموه أحسن إعداد . وأنت

تظن أنك ستجد فيَّ فتاة جادة، تقبل على العمل باسمة الثغر، ليس في طبعها خشونة ولا جحود.. لقد كنت في عبارتك موجزاً، وسيكون ردي عليها موجزاً. أجل إني قابلة أن أذهب وإياك وأن ألبي نداء القدر، وقد أتممت ما عليّ هنا من واجبات، فأسلمت النفساء إلى أهلها، وكان سرورهم بالنجاة لا حد له. وأكثر الشريدين قد التقوا بذويهم؛ والآخرون سيتقابلون قريبا. وهم جميعا يحسبون أن سيعودون إلى أوطانهم بعد أيام قلائل؛ وهذا دأب الطريدين إذ يغررون بأنفسهم. أما أنا فلا أخدع نفسي بالأماني الكذاب في هذه الأيام العصيبة، التي تنذرنا بما هو أشد منها هولاً، إن الروابط التي تصل بين أواصر العالم قد انحلت عراها. فأي قوة تستطيع أن توثقها مرة أخرى؟ اللهم إلا قوة الشقاء الجسيم، الذي يتهددنا ويوشك أن يحل بنا؟.

«ولئن أتيح لي أن أكون خادما في بيت رجل جليل، وأن أعول نفسي من هذا السبيل، في رعاية امرأة طيبة صالحة، فإني أقبل هذا عن رضى وارتياح. والفتاة التي تقضي أيامها في التنقل من أرض إلى أرض، يكثر حولها القيل والقال؛ أجل إني ذاهبة

معك، فأمهلني حتى أحمل الجرتين إلى الأصدقاء، وتعال لكي تراهم حين يستقبلوننا» .

أصغى الفتى مسرورا إلى هذا القرار الذي قطعته الغادة عن رضى وارتياح، وجعل يسأل نفسه : هل يفضي إليها بالحقيقة الآن ؛ فبدا له أن الأوفق أن يتركها وما توهمت، ثم يذهب بها إلى منزله، فلا يحدثها حديث الحب إلا هناك . ثم لاحظ في شيء من الأسف أن بأصبعها خاتما من الذهب، فلم يحر كلاما، واكتفى بالإنصات لما تقول .

فقالت له : «لنرجع أدراجنا الآن! فإن الناس يوجهون قارص اللوم إلى الفتيات، اللواتي يطلن المكث عند البئر، مع أن الكلام لدى الينبوع المتدفق من أحب الأشياء إلى النفس .» .

عند ذلك نهضا واقفين، ونظرا مرة أخرى في الماء فبعثت هذه النظرة في كل منهما إحساسا رقيقا، وشعورا عميقا .

ثم حملت الجرتين ممسكة بقبضتيهما، وصعدت الدرج وهرمن على أثرها . وقد طلب إليها أن تناوله إحدى الجرتين كي يقاسمها العبء الذي تحمله، فقالت : «دعهما لي، فإن في حمل الاثنين معا، ما يبعث على اتزان الجسم، فلا يتعبني حملهما .

ويجب أن أذكر أن السيد الذي سيكون لي آمرا، أولى به ألا يقوم الآن بخدمتي. وفيم تنظر إليّ هذه النظرات الحزينة؟ كأن الذي أنا صائرة إليه أمر يبعث الحزن والهموم. إن واجب المرأة يقضي عليها أن تتعلم كيف تخدم، كي تؤدي وظيفتها في الحياة. فبالخدمة وحدها تستطيع المرأة، مهما طال المدى، أن تنال السيادة التي هي بها جديرة وحقيقة، فتصبح لها في دارها الكلمة العليا.

«وهكذا تأخذ الأخت مبكرة في خدمة شقيقها وفي خدمة والديها. فحياتها أبدا حركة دائمة: جيئة وذهاب، ورفع ووضع، وإعداد أشياء وإجهاد للنفس من أجل الغير... وما أسعدها حين تعتاد نفسها كل هذا، فلا ترى في شيء غضاضة ولا تزهد في عمل مهما كان حقيرا تافها، وسيان لديها أفي ساعات الليل تعمل أم في ساعات النهار... أجل ما أسعدها إذ تصبح وقد نسيت نفسها تماما، فلا تحيا إلا من أجل الآخرين!

وما أحوجها إلى كل هذه الفضائل حين تغدو والدة، حين يوقظ الطفل الرضيع أمّه، طالبا الغذاء، وهي بعد ضعيفة هزيلة، وما كفاها ما تعاني من ألم، حتى تضطلع بهموم جديدة.

ولن يستطيع عشرون رجلا أن ينهضوا بهذا العبء، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. وفي الحق إن هذا ليس من شأنهم. ولكن لا أقل من أن يعترفوا للمرأة بالفضل، ويقابلوه بالشكر.» .

بهذه الكلمات نطقت الغادة مخاطبة رفيقها، وهو لا ينبس بكلمة. وقد اجتازا الحديقة، ووصلا إلى فناء الجرن، حيث اضطجعت النفساء، يصحبها الشقيقتان اللتان نجتا من الهلاك. وقد دخلتا عليها في تلك اللحظة فإذا هما ملكان طاهران ودخل من الناحية الأخرى في الوقت نفسه ذلك القاضي الوقور، ممسك بيده طفلين قد يئست من لقائهما أمهما المسكينة، واستطاع الشيخ الآن أن يجدهما وسط هذه الجماهير المضطربة. وقد وثبا مسرورين ليحييا أمهما الراقدة، ويحييا الطفل الرضيع الذي سيغدو لهما رفيقا يلاعبانه ويداعبانه. ثم وثبا نحو دروتيه، وسلما تسليم الصديق المتحمس، وطلبا منها خبزا وثمراً وماء ليشربا فأمسكت الجرّة وناولتهما الماء فشرب الأطفال، وسقت النفساء وأختيها؛ وسقت القاضي، وقد شربوا جميعا وارتووا، وأثنوا على الماء القراح، الذي طاب مذاقا، وفيه غذاء وشفاء.

وعند ذلك قالت الغادة وهي تنظر إليهم نظرات جدّ:

«أيها الأصدقاء! إني لأخشى أن تكون هذه آخر مرة أدني الجرّة إلى ثغوركم فأبلل بالماء شفاهكم، ومنذ اليوم، إذا اشتد بكم الحر فملتم إلى الظل تطلبون الراحة، وتطفئون الغلة إلى جانب عين جارية، فهنالك فلتذكروني، ولتذكروا ما قمت به من خدمة كان يبعثها حبّي لكم، لا مجرد القرابة التي تجمعنا، أما ما أسديتم إليّ من جميل فإني ذاكرته مدى الحياة. لعمري إني لأحزن لفراقكم. ولكننا أصبحنا بحال أنا فيها أدنى أن أكون عبئا عليكم من أن أكون عونا لكم. وإذا حيل بيننا وبين أوطاننا فليس لنا بد — قريبا أو بعيدا — من أن نتفرق في بلاد الغربة.

«أنظروا! هذا هو الشاب الذي ندين له بهذه الهدايا: بهذا الكساء للطفل الرضيع، وتلك الأطعمة الشهية. لقد أقبل الساعة يسألني أن أذهب إلى داره، لكي أقوم بخدمة والديه صاحبي الغنى والجاه. فلم أرد هذا الطلب؛ لأن واجب الفتاة يقضي عليها بأن تخدم؛ وإنها ليشق عليها أن تجلس في البيت مستريحة، تاركة لغيرها أن تقوم بخدمتها. لهذا سأمضي منشرحة

الصدر مع هذا الشاب، وقد ألفيته عاقلا ذكيا؛ وكذا سيكون الوالدان من غير شك. كما يليق بقوم ذوي يسار.

«فيا صديقتي العزيزة أستودعك الله : ولتقر عينك برضيعك الذي ينظر إليك الآن نظرات ملؤها الصحة والحياة. فإذا ما ضممته إلى صدرك وهو في هذه اللفائف المتعددة الألوان. فاذكري الشاب الذي أهداها إلينا. والذي سأنال منه أنا أيضا في المستقبل ما به أكتسي وأغتذي. وأنت أيها الرجل الجليل (مخاطبة القاضي) لك مني جزيل الحمد على أن كنت لي أبا ونصيراً في مواقف عديدة.» .

ثم ركعت جاثية بجانب الأم الراقدة. وقبلت وجهاً بللته العبرات. وأنصتت إليها، وهي تمطرها صالح الدعوات بصوت هادىء خافت.

وفي هذه اللحظات كان القاضي الفاضل يقول لهرمن. «إنك أيها الصديق لجدير بأن تعد من أعقل أصحاب المنازل. الذين يعرفون كيف يختارون لإدارة دورهم أكثر الناس دراية وكفاية. وعهدي بالناس إذا أرادوا اقتناء الخيل أو البقر أو الغنم سواء بالمبادلة أو بالشراء، أن ينعموا النظر، ويحققوا.. ويدققوا أما

الإنسان الذي يستطيع أن يصلح كل شيء في الدار ويحفظه ، إن كان صالحا ، وأن يفسد كل شيء ويخرب كل شيء بالخرق والطيش . فإنه يؤتي به إلى الدار بمحض الحظ والمصادفة . فلا يلبث أصحاب الدار أن يندموا على تسرعهم حين لا يجدي الندم . أما أنت فيبدو لي أنك قد فهمت هذا الأمر جد الفهم . وقد لعمري عرفت كيف تختار لخدمتك وخدمة أبويك فتاة قلَّ نظيرها . فأقدرها حق قدرها ! وما دامت هي القائمة في بيتكم . فلن تشعر بفقد الأخت . ولن يحس أبواك فقد ابنتهما .» .

وفي تلك اللحظة أقبل كثير من أقارب النفساء يحملون الهدايا . ويسوقون إليها البشرى بأن ستنقل إلى مسكن خير من الذي هي فيه . وقد سمعن جميعا ما قرَّ عليه رأي الفتاة . فنظرن إلى هرمن نظرات ذات معان ، تنبيء عما يدور بخاطرهن من أفكار يحاولن إخفاءها . وقد مالت واحدة منهن إلى صاحبتها وهمست في أذنها قائلة : «ولئن انقلب المولى عروسا فقد سعد جدها .» .

عند ذلك قبض هرمن على يدها وقال لها : «هلم بنا ! إن النهار يوشك أن ينقضي والبلدة بعيدة .» فجعلت دروتيه تعانق

النساء، وهي تودعهن. فجذبها هرمن وهي تحيي الجميع أحسن تحية. وأمسك الأطفال بثوبها وهم يبكون وينتحبون ولا يريدون أن يدعوا أمهم الثانية تغادرهم. فجعلت كل من النساء تأمرهم بأن يخلدوا إلى السكون. قائلة: «لم هذا البكاء؟ وهي إنما تذهب إلى المدينة لتأتيكم بتلك الحلوى الكثيرة التي أوصى بها أخوكم الرضيع. حينما حمله اللقلق الصغير إلى هنا[1] مارًّا بدكان الحلواني. وسترونها بعد قليل. وقد عادت إليكم بالقراطيس الذهبية الجميلة.» .

هنالك أطلق الأطفال سراحها. فانطلق بها هرمن. ولأياً ما استطاع أن ينجو بها من كل هذا العناق. ثم من الإشارات بالمناديل بعد أن ابتعدا.

---

(١) في بعض بلاد أوروبا إذا ولد طفل، وجعل الأطفال الصغار يسألون من أين جاء هذا الصغير؛ فيجيبهم الكبار بأن قد جاء به طير اللقلق أو شيء آخر. والعبارة قد تختلف قليلا من بلد إلى بلد.

النشيد الثامن

ملبوميني MEL POMENE

(الهة المآسي)

هرمن ودروتيه

انطلق الاثنان ، وأمامهما ذكاء قد مالت للغروب ، مستترة خلف غشاء كثيف من السحاب المنذر بالرعد وبالأمطار . والشمس من وراء ذلك القناع تبعث بنظرات ملتهبة ، طورا هنا وطوراً هنالك ، فتسكب على الفضاء أشعة سحرية مبهمة ، قد كمن فيها نذير الشر .

قال هرمن : «عسى ألا يرسل إلينا هذا السحاب المكفهر بَرَداً أو وابلا منهمراً ، فيفسد غلة هذا العام على حسنها .» .

وقد سر الاثنان لمنظر القمح ، وقد تمايلت سنابله على

سوقه. ويوشك أن يبلغ في الطول قامة الصديقين اللذين يسيران وسطه الآن.

وقالت الفتاة لصاحبها: أيها الرجل الصالح، الذي أمسيت له مدينة بهذا المصير الحسن، وبهذه الدار التي ستؤويني وتظلني، بينا يبيت كثير من الطريدين في العراء، عرضة للعواصف والأمطار. حدثني الآن، وقبل كل شيء، عن أبويك اللذين سأقوم بخدمتهما، واللذين أميل إليهما بكل قلبي. فأطلعني على جلّية أمرهما، لأن من عرف مولاه سهل عليه إرضاؤه. بأن يكون حريصا على كل شيء يراه هو في المرتبة الأولى، وقد وقر في نفسه أنه أكثر خطراً من كل شيء سواه. لهذا سألتك أن تخبرني كيف أستطيع إرضاء الوالد والوالدة.» .

فأجابها الفتى: «إنك أصبت كل الإصابة إذ تسألين عن خلق الوالدين وعن طباعهما. فقد قضيت عمري وأنا أحاول عبثاً خدمة أبي وإرضاءه بأن أقوم بإدارة العقار كله، كأنما أديره لنفسي، وأتعهد الحقول والكروم صباحا ومساء. أما والدتي فمن السهل أن أكسب رضاها، لأنها تقدر الجهود حق قدرها.

وأنت أيضا ستصبحين لديها خير الفتيات وأفضلهن، إذا

عنيت بأمر المنزل كأنه منزلك . أما والدي فليس من هذا الطراز ، لأنه يحب المظاهر البرّاقة الخلابة . ولا تتهميني أيتها الفتاة الطيبة بالبرود أو بالقسوة ، أن كشفت لك عن أمره ، وأنت بعد غريبة عنّا . وإني أقسم لك أن هذه أول مرة أنطق فيها بمثل هذا القول . وما أنا ممن يحبون كثرة القيل والقال . لكن مرآك يبعث الثقة في النفس ، ويجعلني مطمئنا لأن اتحدث إليك في مثل هذه الأمور . فوالدي يتطلب في الحياة شيئاً من المداهنة . ويود أن يبالغ الناس في إظهار الحب له والإجلال والإكرام . ولقد يسر أحيانا من خادم خائن يعرف كيف يستغل طبعه هذا ، وبالعكس قد لا يسره المخلص الأمين .» .

فقالت الفتاة وهي تسرع الخطى . وقد أخذ الليل يرخي سدوله : «لكني أرجو أن أكتسب رضى الاثنين . فطبع الأم موافق طبعي تماما . وعدا هذا فإني قد قد ألفت منذ الصبى أن ألاطف وأجامل . فإن جيراننا الفرنسيين في الزمن الغابر[1] كانوا يجعلون للأدب واللياقة أهمية كبرى . فكان التمسك بالآداب فرضاً على

(١) أي قبل أن تبدل الثورة من طباعهم.

الأشراف النبلاء وعلى الطبقات الوسطى من أهل المدن. والفلاحين العاملين على حد سواء. فكان الكل يفرضها فرضاً على أهله وعشيرته. وقد سرت إلينا، نحن جيرانهم من الألمان، تلك العادات، فترى الأطفال عندنا في الصباح يقرئون الآباء السلام، مكبين على أيديهم يقبلونها مظهرين نحوهم كل إجلال وإعظام. وهكذا دأبهم طول النهار.

فهذه كلها أمور ألفتها ودرجت عليها منذ الحداثة حتى باتت لي طبعاً وخلقاً، وسأبديها كلها تلقاء الشيخ الوالد.

ولكن من مخبري الآن كيف ألقاك أنت وكيف أعاملك أنت الابن الوحيد الذي سيكون لي في المستقبل سيداً آمراً؟».

وعندما نطقت الفتاة بهذه العبارة. كانت قد وصلت رفيقتها إلى شجرة الكمّثْرَى. وقد أشرق البدر التمام. وجعل يرسل ضياءه من السماء، واختفت الشمس تحت الأفق فلم يبق منها شعاع ولا ضياء؛ فكان أمامهما أنوار مضيئة كأنها النار الساطعة، وظلال معتمة كظلام الليل البهيم.

وقد أنصت هرمن إلى ذلك السؤال؛ وهو واقف معها تحت ظل الدوحة الباسقة، في أحب بقاع الأرض إلى نفسه،

حيث كان يذرف الدمع في ذلك اليوم بعينه، من أجل هذه الطريدة الواقفة بجانبه.

جلست الفتاة في ظل الدوحة لتستريح قليلا، فأجابها الفتى العاشق على سؤالها، وهو قابض بيده على يدها: «دعي قلبك يوح إليك بما تفعلين، ثم أجيبي وحيه، ولبّي نداءه في كل شيء» .

ولم يَجرُؤْ أن يزيد على هذا حرفاً، وكان الوقت مؤاتياً والفرصة سانحة، ولكن خشي أن يتعجل كلمة النفي، وآلمه حين قبض على يدها أن أحس ذلك الخاتم على أصبعها. ولهذا جلس إلى جانبها لا يحرك ساكناً، ولا ينطق بكلمة.

لكن الفتاة قطعت حبل الصمت وقالت: «ما أبدع ضياء البدر وما أعذبه! إنه ليحاكي ضوء النهار. حتى لأُبْصِر من هنا في جلاء ووضوح، ديار المدينة وقصورها، وأرى هناك غرفة تحت نافذة، ولقد أستطيع أن أحصي ما بها من قطع الزجاج» .

فقال الفتى وهو يكتم عواطفه: «إن هذا الذي ترينه هو منزلنا، حيث أذهب بك الآن. وتلك الغرفة الملاصقة للسقف هي غرفتي، وقد تغدو غرفتك قريباً. لأننا كثيراً ما نغير من نظام

المنزل . وهذه هي مزارعنا . وقد نضجت ثمارها وحان وقت الحصاد. وفي ظل هذه الشجرة نجلس وقت الظهيرة لنتناول غداءنا .

والآن هلم بنا نمش وسط الكرمة . ثم نجتاز الحديقة إلى الدار . فإني أرى السحاب المطير يوشك أن يغشانا ويغشى البدر التمام ، وهذي بروقه أخذت تلمع» .

ثم نهضا من تحت الشجرة ، وجعلا ينحدران وسط المزرعة ، ما بين قمح قد علا ونما . وسرّهما ما يحيط بهما من ضياء لامع منتشر . ولم يلبثا أن وصلا إلى الكروم ، وتحت عُرُشها ظلام حالك ، فجعل الفتى يقودها ، وهو ينزل بها تلك الدركات الحجرية الخشنة ، الممتدة وسط العريشة . فأخذت الفتاة تنزل في ريث وأناة ، مسندة يديها إلى كتفيه . وكان القمر يطل عليهما من خلال الكرم بأشعة ضعيفة تهتز وتضطرب . ثم لم يلبث أن غشيته السحب وخلفهما في ظلام قاتم . فجعل هرمن يمشي بتؤدة ، والفتاة مستندة إليه ، على قوتها . وهي تمشي خلفه بدركة واحدة ، ولكنها لجهلها الطريق ولما بالدرج من خشونة وسوء انتظام ، تعثرت في مسيرها ، وزلّت بها رجلها ، وكأنما التوت قدمها ،

فسمع لها صوت، ومالت الفتاة لتهوي، لولا أن أدار الشاب وجهه مسرعا، وبسط ذراعيه وأمسك بهما جسمها المحبوب، فسقطت متساندة على كتفيه، وقد التصق في تلك اللحظة صدرها بصدره، ولامس خدها خده، ووقف هو ساكناً كأنه تمثال من المرمر. وليس في قلبه ذرة من العبث. فلم يضمها إلى صدره إلا بمقدار ما يمنعها من السقوط. ومع ذلك فقد كانت عبئاً جميلا. وكان يحس حرارة صدرها وقد لامس صدره؛ وعبير أنفاسها الشافية يهب على شفتيه، لكنه كان محتملا لجثمانها، وليس في صدره غير شعور الرجل القوي العزيمة.

أما هي فسرعان ما أخفت ما بها من ضر، وقالت وهي تضحك: « في عرف الناس ذوي العقل والبصيرة. إذا التوت الرجل عند عتبة البيت فإن هذا ينذر بشر مستطير. وكان أولى بك أن تجد لي فألا خيراً من هذا الفأل. والآن فلنتمهل قليلا، كي لا يلومك أبواك على أن أحضرت إليهم خادماً عرجاء فتبدو أمامهم ربَّ دارٍ كثير الإهمال». .

النشيد التاسع

أورانيا URANIA

(الهة الفلك)

مستقبل !

آي آلهات الفنون[1] ! يا من يسرُّهُنَّ أن يُحْسِنَّ إلى العاشقين المغرمين ! لقد أخذتن بيد هذا الفتى الصالح، وسلكتن به أسلم الطرق، حتى لقد ضممتُنّ صدره إلى صدر حبيبته، من قبل أن تعقد بينهما خطبة، ألا فلتساعدن الآن على توثيق تلك الرابطة التي ستجمع بينهما، ومَزِّقن تلك السحب التي تعكر

(١) الاستنجاد بالموزات (Musen) شيء مألوف في الشعر الحماسي، و لكن جوته لم يلجأ إليه إلا في هذا الموضع، بعد أن كاد يفرغ من كتابة قصته في أسلوب سهل خال من كل تكلف.

صفاء سعادتهما، واقصصن علينا، قبل كل شيء، ما يجري الآن بالدار.

عادت الأم للمرة الثالثة إلى حجرة الرجال، وقد بلغ منها القلق مبلغه، وكانت قد غادرتها منذ لحظة، حينما طغى السحاب على القمر، وأحست بدنوّ العاصفة. وساورها الخوف على ابنها، لتخلفه إلى تلك الساعة وسط الليل البهيم وأخطاره.

فجعلت توجه إلى الصديقين قارص اللوم، إذ رجعا دون أن يتحدثا إلى الفتاة، أو يقولا كلمة من أجله. بل تركا الفتى وشأنه، وعادا مسرعين.

فقال لها الوالد: «لا تجعلي الشر أسوأ مما هو! فنحن مثلك قد أضجرنا الانتظار ونريد أن نستقر على حال».

وأخذ الصيدلي يتكلم بهدوئه المعهود دون أن يتحرك من مكانه، فقال! «حينما تمر بي ساعة كالتي نحن فيها الآن يستحوذ فيها على الناس القلق، وينضب معين الصبر، عند ذلك أبادر بشكر والدي المرحوم، الذي استأصل من نفسي جذور القلق والضجر، حين كنت في الدار صبياً؛ فلم يبق منها في صدري أثر، وأمسيت حليما صبوراً، كأكبر العقلاء وأحزمهم».

فقال له القسيس: «وأي آلة استخدمها أبوك الشيخ للوصول إلى هذا الغرض؟ فأجاب الآخر: «يسرني أن أقص عليكم ذلك القصص. وفي وسع كل منكم أن يستفيد منه أجل الفوائد. كنت مرة — وأنا بعد صبي — أنتظر بفارغ الصبر قدوم المركبة التي ستقلنا في يوم الأحد إلى البئر تحت أشجار الزيزفون. لكن المركبة لم تجيء. فجعلت أجري كالوزعة من مكان إلى مكان، صاعدا نازلا؛ طورا أنظر من الباب، وطورا أطل من النافذة. وأحسست بحكة في يدي، فجعلت أحدث في المائدة خدوشا. وأضرب الأرض برجلي، بل كدت أبكي بكاء... رأى الوالد كل هذا وهو في سكونه المألوف. ولكنه لما آنس أن الهياج قد بلغ مني درجة الجنون، أخذ بذراعي في هدوء؛ ومشى بي إلى النافذة، وألقى على سمعي هذه العبارة الحكيمة: «أنظر إلى هناك! تر ذلك النجار قد أغلق دكانه اليوم! لكنه سيفتحه غدا، وعند ذلك يتحرك المنشار وتتحرك (الفارة) ولا يزال يجدّ ويعمل من الصباح إلى المساء... لكن تذكر ولا تنس أنه سيأتي يوم يشتغل فيه ذلك النجار هو وجميع مساعديه، كي يصنعوا لك نعشا، يهيئونه ويتمّونه بسرعة. ثم يبادرون بنقل هذا المنزل الخشبي

إلى هنا . وهذا المنزل هو المصير الذي يؤول إليه الناس جميعا سواء منهم من كان صابراً ، أو من كان ضجرا ، وبعد ذلك يوضع المرء تحت سقف ثقيل .

كل هذا رأيته ماثلا في خاطري ؛ فكأنما رأيت الألواح تمد . واللون الأسود يعد ، لكي تصبغ به الألواح . عند ذلك زايلني الضجر . وجلست أنتظر المركبة في صبر وسكون ، ومنذ تلك اللحظة ، إذا أبصرت الناس في هرج ومرج من جراء أمر أقلقهم انتظاره . عند ذلك يخطر النعش ببالي فألزم الهدوء» .

فتبسم القسيس ضاحكا وقال : «إن منظر الموت ، وإن أثّر في النفس ، لا يزعج الرجل العاقل ولا يرى فيه المؤمن أنه الغاية التي ليس وراءها شيء . فأما الأول فإن منظر الموت يثير في نفسه روح الجد والعمل ، وأما المؤمن فإنه ينويه في ساعة المحنة بما يبعثه في نفسه من الأمل في السعادة المقبلة[1] فيصبح الموت في نظر كل

(١) أي أن الناس أمام الموت إما رجل يهتدي بفكره ، أو رجل يهديه إيمانه ودينه . وليس معنى هذا أن المتدين لا يفكر أو أن المفكر لا دين له . وإلا لما جاز للقسيس أن يفوه بهذا الكلام . وكل ما هنالك أن الإنسان إذا استرشد بفكره ، أو بإيمانه فليس في الموت ما يدعو إلى الجزع .

منهما هو الحياة بعينها... وقد كان خطأ من الوالد أن صوّر لابنه ــ وهو بعد ذو شعور حساس ــ الموت، في شكله الرهيب، وإنما يجب علينا أن نُري الشباب ما في الشيخوخة من نضج وجلال، ونُري الشيوخ منظر الشباب لكي يجد الاثنان لذتهما في مراقبة تلك الدورة الأبدية وكلها حياة في حياة» .

○

في تلك اللحظة فتح الباب. وظهر الفتى والفتاة، في روعة وفي جلال، فدهش الصديقان، ودهش الأبوان إذ أبصرا العروس، وقوامها يكاد يدنو من قوام الفتى، حتى لقد خيل إليهما أن الباب أصغر من أن يسع هذين القوامين السمهريين.

خطا الاثنان معا فوق العتبة، وبادر هرمن بتقديمها لوالديه بألفاظ عَجِلة سريعة. فقال: «هذه فتاة تتمنيان أن يكون لديكما مثلها. فأكرم وفادتها أيها الوالد العزيز، وأنتِ يا أماه! سليها عن شؤون المنزل جميعا، لكي تدركي أنها أجدر الناس بأن تقربيها إليك، وتدنيها منك» .

والتفت هرمن إلى القسيس، وانتحى به ناحية، وقال له همساً: «أيها السيد الجليل! أعنّي بالله على الخروج مما أنا به من مأزِق. وساعدني على حل عقدةٍ، أخشى أن تسوء حالها، إن لم نتداركها بسرعة. فإني لم أطلب إلى الفتاة أن تكون لي خطبة، وهي تظن أنها تنزل البيت خادماً، لا عروسا، وأخشى أن تفر هاربة منا لمجرد ذكر الزواج. فلنمض في سبيلنا بسرعة؛ ويجب ألا ندعها في خطئها هذا طويلا. وأنا كذلك لا أطيق البقاء في ظلام الشك طويلا فأسرع بربك، وأظهر الآن ما نعهده فيك من عقل وحكمة»

عند ذلك التفت القسيس إلى الجماعة يريد مخاطبتهم، ولكن كانت الفتاة، ويا للأسف. قد أخذ منها الكدر مأخذه. حين أنصتت لمقالة الوالد، ولو أنه تكلم بنية حسنة. وبفكاهته المألوفة. فقال «نعم ما فعلت يا بني! ولقد سرني أن يتشبه الولد في حسن ذوقه بالوالد، الذي كان لا يصطحب إلى المراقص غير أجمل الفتيات. ثم اختار أخيراً أبهى النساء زوجا له، وها هي الآن: الأم العزيزة المحبوبة. ولعمري إن الرجل ــ عند اختياره لزوجة ــ ليعلن للناس عن حصافته وعن عقله. وعما إذا كان

يأنس في نفسه فضلا وجدارة. أما أنتما فلم تكونا بحاجة إلى تفكير طويل، قبل أن تقطعا برأي. وأنت يا ابنتي ما كان لك أن تتردَّدِي طويلا في قبول هرمن.».

وكان هرمن في تلك اللحظة يخاطب القسيس، فلم يسمع من كلام أبيه إلا نصفه، ولم يكد يعي ما تضمنه حتى جعلت جوارحه ترتعد، وقلبه يخفق. وساد السكون فجأة. وصمت الجميع..

أما الفتاة فقد جرحت عزة نفسها لكلام حسبته تهكما وسخرية منها. وبلغ الألم منها صميم القلب. وتصاعد الدم إلى وجهها. فغطى الخدين وصفحتي العنق. ولكنها ملكت نفسها وحاولت جهدها إخفاء ما تحسه من ألم. ثم قالت للشيخ: «لعمري إن ابنك لم يعدّني لمثل هذا اللقاء، حينما وصف لي السيد الوالد، بأنه كأحسن ما يكون عليه أهل المدن من كمال وفضل... ومع علمي أنني الآن بين يدي رجل أوتي من العلم والأدب النصيب الأوفر، ويعرف كيف يعامل كل إنسان بما هو أهل له. فإني أظنك لا تحس عطفا ولا رحمة نحو هذه البائسة المسكينة التي دخلت دارك الساعة لكي تسهر على خدمتك.

ولو كنت تحس نحوي القليل من الرحمة، لما خاطبتني بكل هذا التهكم المر، مهما كنت تحسبني دونك ودون ابنك منزلة وقدراً. لقد جئت اليوم، وليس بيدي غير حقيبة صغيرة، إلى منزل فيه سائر الأمتعة، وقد توافرت فيه جميع وسائل الراحة والسعادة للذين يسكنونه. بيد أني أعرف لنفسي منزلتها، وأقدرها حق قدرها؛ فهل من النبل والكرم أن أُقابَل، بمجرد دخولي الدار، بهذا التهكم الذي يوشك أن يلقي بي إلى خارجها؟» .

استولى على هرمن الرعب. فأشار إلى القسيس أن يتدخل ويبدد غيوم هذه الأغلاط. فبادر هذا الرجل العاقل، وأقبل على الجماعة ورأى الفتاة الطريدة يتناهها الكمد والألم، واغرورقت عيناها بالدمع، فلم يشأ أن يحل عقدة الشك فورا بل حدثته نفسه أن يبلو أمر الفتاة أولا، ويستطلع دخائل نفسها: فخاطبها بألفاظ يختبرها بها، وقال: «حقا أنك متسرعة، قليلة التروّي، أيتها الفتاة الغريبة إذ قبلت على عجل أن تكوني خادما عند قوم تجهلينهم، وكأنك لم تفهمي أن هذا معناه أنك ستكونين خاضعة لسلطان سادة آمرين، ما دمت قد تعاقدت معهم على القبول. وإن رضاك هذا ليحتم عليك الطاعة والخضوع لأمور كثيرة.

وليس أشق شيء في الخدمة تلك الأعمال المنزلية المضنية، ولا العرق المتصبب من جراء المجهود الجثماني الذي لا ينقطع؛ لأن ما يعانيه رب الدار من هذا لا يقل عما يعانيه الخدم. كلا، بل أشق ما في الخدمة أن تجاملي مولاك إذا ساء خلقه، وأن تحملي ظلمه إذا ظلم، وأن تنصتي إلى أوامره المتضاربة المتناقضة، إذا كان متردداً لا يعرف لنفسه رأيا قاطعاً، وأن تقبلي من ربّة المنزل ما قد تبديه من عنف وشدة. فهي سرعان ما يتملكها الغضب، وأن تتحملي رعونة الأطفال، وما قد يبدونه نحوك من قحة وغلظة.

«هذه كلها أمور تشق على النفس، ولكن احتمالها أمر لا بد منه لتأدية الواجب المفروض على الوجه الأكمل، من غير ملل ولا تذمر، وأكبر ظني أنكِ لست على شيء من المهارة في هذا، مع أنه ليس هنالك شيء أيسر من أن يمازح المرء فتاة على إعجابها بأحد الفتيان».

سكت القسيس، لكن كلماته نفذت إلى قلب الفتاة الحساس، فلم تعد قادرة على ضبط نفسها، وظهرت أشجانها الكامنة، فجعل صدرها يعلو ويهبط، والزفرات المحرقة تتصاعد منه، وقالت: وهي تسكب الدمع غزيراً: «إن الرجل الذي

يتحدث بعقل وبمنطق، ويريد أن يعظنا في وقت المحنة، قلّما يدرك أن كلامه الفاتر الرزين لا يغني شيئا في تخفيف ذلك الشقاء. وأنّى لكم، وأنتم في السعادة والنعيم تمرحون، أن تحسوا ما قد يحدث المزح من ألم وعذاب؟ أما المريض الذي شفّه الضنى فإنه يحس الأذى مهما كان صغيرا أو تافها. ولن يجديني الآن أن أتكلف الرضى والسرور. بل ليظهر الآن ما لو كتمته في صدري لكان فيما بعد سببا في ازدياد همومي، بل لقد يسلمني إلى كمد يقتلني على مهل.

«فدعوني الآن أرجع أدراجي. فما كان لي أن أبقى في الدار لحظة. بل الأجمل بي أن أنطلق الآن فألحق بأهلي وأقاربي الذين خلفتهم وسط الشقاء، لكي أسعى في تحسين حالي وحدي. أجل هذا هو رأيي الذي لن أحيد عنه. ولهذا أريد أن أعترف لكم قبل انصرافي بأمر كان في وسعي أن أبقيه سراً مكتما طوال السنين.

«إن ما لقيته من الوالد من التهكم قد أثّر فيّ أبلغ التأثير، لا لأني رقيقة الإحساس شديدة الكبرياء؛ فليس هذا مما يليق بالخادمات، بل لأني حقيقة قد استشعرت في قلبي ميلا نحو هذا

الفتى، الذي قابلني اليوم، منجدا ومنقذا، ثم غادرني في الطريق ومضى، فلم يزل بعدها ماثلا في خاطري. وجعلت أفكر في الفتاة السعيدة التي اختارها قلبه. وحينما قابلته لدى البئر بعد ذلك فرحت فرحا شديدا كأني قابلت أحد سكان السماء. ولهذا تبعته مسرورة حين طلب إليّ أن أكون خادما. ولست أنكر أنني كنت أخدع نفسي أحيانا وأنا قادمة إلى هنا فأصوّر لها أن قد لا يكون مستحيلا أن أصبح يوماً به جديرة، حين أصبح في المنزل ذخرا وعونا لا يمكن الاستغناء عنه.

«لكنني الآن أدرك البون الشاسع الذي يفرق بين الفتاة الفقيرة وبين الشاب ذي اليسار، مهما رزقت من النشاط والفضل.

«كل هذا أقصه عليكم كي تذكروا حقيقة ذلك القلب الذي جرحته كلمة قيلت مصادفة وعفواً. وإني لهذه المصادفة لشاكرة، وإلا فما يكون مصيري إذ أكتم آمالي وأحلامي في صدري، وأنتظر حتى أراه يقتاد عروسه إلى الدار بعد قليل، وكيف أقدر حينذاك على تحمل كل تلك الآلام في الخفاء؟

«أجل إني لسعيدة إذ أنذرت منذ الساعة بالذي أتوقع،

وسعيدة أيضا لأني أفضيت بما يكنه صدري، والداء بعد مما يمكن علاجه، قبل أن يتأصل ويستفحل، والآن حسبي الذي قلته، وليس لي الآن ما أبقى ها هنا من أجله. يعلوني الخجل والاضطراب بعد أن أدليت بمكنون سري، وبالآمال الكواذب التي كانت تجول في صدري. وسأذهب الساعة، ولن يمنعني من الذهاب هذا الليل البهيم تغشاه السحب القاتمة، ولا الرعد القاصف، الذي يصم الأسماع هزيمه. ولا المطر الذي يتساقط وابلا منهمرا، ولا الرياح العاصفة وزئيرها المخيف، تلك أشياء قد مارستها من قبل، حينما اضطررنا إلى الفرار، يتعقبنا الأعداء عن كثب. فهأنا ذي ذاهبة إلى هنالك. وقد ألفت منذ نزلت بنا هذه الكوارث، أن أمضي في سبيلي وليس في حوزتي شيء.

«إذن أستودعكم الله لن أبقى هنا لحظة أخرى».

ولم تكد تنطق بهذه الألفاظ، حتى تراجعت إلى الباب، متأبطة الحزمة الصغيرة التي جاءت بها. لكن الأم بادرت فطوقت الفتاة بذراعيها، وصاحت بها وهي مندهشة حائرة: «ويحك ما معنى هذا كله! وما هذه الدموع التي لا أفهم لها كنها؟ كيف أدعك تبرحين الدار وأنت مخطوبة ابني؟».

أما الوالد فنهض متذمراً ضجراً، ونظر إلى الفتاة وهي تنتحب، وقال متأففا: «هذا جزائي إذن على أن أبديت منتهى البشاشة والملاطفة، أن تكون هذه المنغصات هي آخر ما أختم به يومي. إن أبغض الأشياء إلى نفسي بكاء النساء هذا وإعوالهن، الذي يزيد في تعقيد مسائل كان من السهل حلها، بقليل من العقل والروية. فعليكم أن تجدوا المخرج لأنفسكم من هذا، أما أنا فذاهب إلى فراشي لأضطجع».

ثم تولى عنهم ليذهب إلى حجرته، التي لم يزل سرير الزواج منصوبا بها، وكان من عادته أن يأوي إليها ليستريح.

لكن ابنه تعلق به، وجعل يستعطفه قائلا: «لا تسرع بالخروج أيها الوالد! ولا يغضبك ما قالت الفتاة. فعليّ وحدي يقع إثم كل هذا الاضطراب، وقد زاد الصديق الفاضل الموقف حرجا، على خلاف ما كنت أنتظر منه. فتكلم الآن أيها السيد الجليل. فاليك أكل هذا الأمر كله. لا تزد ما نحن فيه من آلام ومخاوف، بل اكشف القناع عن كل شيء، وإلا فلن أستطيع في المستقبل أن أجلك وأعزك، إذا كنت الآن تسلك طريق المكر،

بدلا من أن تصرف الأمور بما عهدناه فيك من عقل ومن حكمة».

هنالك تبسم القسيس الجليل ضاحكا وقال: «لقد كان من العقل وقد كان من الحكمة أن استدرجت الفتاة، حتى أدلت بذلك الاعتراف البديع، وأظهرت من سرها ما كان خافيا. ألم يكن من نتيجة هذا أن استحالت همومك فرحا وسرورا؟ فالآن لم يبق إلا أن تدلي أنت لها بما عندك، ولا حاجة بك لأن يعينك في هذا ثالث.».

فتقدم هرمن إلى الفتاة وقال لها في لطف وفي رفق: «لا تندمي على ما أذريته من الدموع، وما قد أحسست من ألم طارىء سرعان ما يزول. فقد كان في هذا إتمام لسعادتي؛ وأرجو أن يكون فيه إتمام سعادتك أيضا.

«إنني ما ذهبت إلى الينبوع لكي أسأل الفتاة الغريبة أن تكون عندنا خادما. بل ذهبت إلى هنالك لكي أنشد حبك ولكني ـــ واأسفاه ـــ لم تستطع عيناي اللتان أغمضهما الحياء، أن تبصرا أين يميل بك الهوى. وأين يدفعك قلبك. فلم تر العينان منك إلا الصداقة والأدب. حينما كنت تحييني في مرآة ذلك

الينبوع الصافي . ولقد كان في قبولك أن تصحبيني إلى المنزل نصف سعادتي المنشودة . والآن قد أكملت علي النعمة ، فبوركت وحييت ؟ » .

هنالك نظرت إليه الفتاة وقد بلغ التأثر منها صميم القلب . فلم تمانعه حين تقدم إليها ليضمها ويلثمها . فقد كان في هذا بلوغ ذروة السرور ، وضمان لسعادة العمر التي ليس وراءها سعادة .

وقد أفهم القسيس الآخرين حقيقة الموقف ؛ لكن الفتاة يكفها هذا ، بل تقدمت إلى الوالد ، في أدب وفي ظرف ، وأكب على يده فقبلتها رغم ممانعته . وقالت له : «إنك بما طبعت علي من عدل وإنصاف ستعفو عن هذه الفتاة ، التي أذهلها م سمعت وما رأت . فجعلت تبكي بكاء الألم ، ثم أخذت تذرف دموع الفرح ، فاصفح عما رأيت منها في كلا الحالين . وائذ لي بأن أنعم بكل ما أنا فيه الآن من بهجة وسرور ؛ وليكن ذلك الكدر الأول ، الذي كان اضطرابي بعض أسبابه : ليكن الأول والأخير . وأما ما تعهدت الخادم المخلصة بأن تؤديه من خدمة ورعاية ، فهذا كله ستؤديه الكنّة الأمينة . » .

فعانقها الوالد متأثراً وهو يخفي دمعه، وتقدمت الأم على مهل وقبلتها في عطف وحنان، وأخذت بيدها تصافحها والدمع يتساقط من عيونهما دون أن يتحرك اللسان بكلمة.

هنالك تقدم القسيس الصالح، دون أن يضيع لحظة، فانتزع من يد الوالد خاتم الزواج ـــ ولم يكن هذا بالشيء السهل، لأن الإصبع السمينة جعلت إخراج الخاتم شيئاً عسيرا ـــ. ثم انتزع من إصبع الأم خاتمها، وعقد بالخاتمين خطبة الفتى والفتاة، وقال: «ليكن من حظ هذين الخاتمين الذهبيين، مرة أخرى، أن يعقدا رباطاً وثيقا، يعادل الرباط الأول قوة ومتانة، إن هذا الفتى يحب هذه الفتاة حبا جما وهذه الفتاة قد أقرت بأنها تميل إليه، فأنا أعلن خطبتكما الآن، وأبارككما مدى الدهر، بموافقة الوالدين وشهادة صديقنا».

وهنا انحنى الصيدلي، وهو يدعو الدعوات الصالحة، ولكن لم يفته أن أرى عندما ألبس رجل الدين الفتاة الخاتم، أن في إصبعها خاتماً آخر، فأدهشه أن رآه الآن كما رآه هرمن من قبل لدى البئر، فأثار همومه، فقال الصيدلي مازحاً متودداً: «هل

هذه إذن هي الخطبة الثانية؟ ومن يدرينا لعل الْخِطْبَ الأول أن يجيء إلى المذبح فيقيم الموانع دون الزواج؟».

فقالت الفتاة: «دعوني أخصص لحظة لهذه الذكرى، التي يثيرها هذا الخاتم: ذكرى الفتى الطاهر، الذي وهبني إياه، يوم ودعني وسافر، ولم يؤب بعدها إلى وطنه. وكأنما كان عالما بما سوف يقع، حين قذف به إلى باريس حبُّه للحرية. وشغفه بأن يلعب دوره في هذا العالم المتقلب المتحول، فكان نصيبه هناك السجن والموت. وقبيل سفره قال لي: «في رعاية الله! إني منطلق الساعة، لأني أرى كل شيء في العالم قد تحرك مرة واحدة. وقد تقطعت بالناس الأسباب. وأن الشرائع الأساسية لأقوى الدول قد انفصمت عراها. وحيل بين المالك القديم وبين ما يملك. وبُوعِد ما بين الصديق والصديق. وافترق المحب عن الحبيب، وهأنذا أغادرك ها هنا، حيث أرجو أن ألقاك يوما ما. ومن يدري! فقد يكون هذا آخر حديث أتحدث به إليك، وما أصدق قولهم: إن الإنسان في هذه الدنيا في دار غربة... ولم يكن هذا القول في يوم أصدق منه في يومنا هذا. فقد أصبحنا وليست الأرض ملكا لنا. وكنوزها الغالية ذاهبة أدراج الرياح.

والذهب والفضة قد فقدا ما كان لهما من حرمة وتقديس ، واستحالا إلى صورة غير صورتهما الأولى . وهكذا أصبح كل شيء في اضطراب وفي حركة ؛ كأنما يريد هذا العالم القائم أن يتحلل ويتفكك ـــ راجعا القهقرى ـــ وسط الفوضى والظلام القاتم ؛ لكي يلبس بعد ذلك ثوبا جديدا .

فأخلصي لي الحب . وإن قُدّر لنا أن نلتقي فوق أنقاض هذا العالم ، فسنلتقي كشخصين جديدين ، قد كوّنا تكوينا جديدا وأصبحا حرين طليقين ، لا يخضعان لصروف الأقدار . ولعمري كيف يقبل التقيد بقيد من استطاع أن يعيش في هذا الزمن العصيب ثم يخرج منه حيا ؟ .

أما إذا شاء القدر ألا يكون لقاء سعيد بعد هذه المحن والأخطار . وأن لن يتاح لنا أن نتعانق في سرور مرة أخرى . عند ذلك فاحفظي ذكراي . واجعلي صورتي الخافقة أمام خاطرك ، لعل في هذا ما يبعث في صدرك الهدوء والجلد . فلا يهمك بعدها أنزلت بك الكوارث أم غمرتك السعادة .

وإذا استهواك منزل جديد ، وعلاقة جديدة ، فانعمي شاكرة بما أعدته لك الأقدار ، وأخلصي الحب لمن يحبك وقابلي

الاحسان بالحمد والشكر. لكن حذار أن تسرفي في الحب، خشية أن تحل كارثة جديدة فيؤودك وقع المصاب المزدوج.

بورك الله في أيامك. ولكن حذار أن تنظري إلى الحياة إلا كمتاع من الأمتعة. وليس كل متاع إلا خدعة وغرورا[1].

تلك كانت الوصية التي أوصاني بها الفتى ذو النبل. ولم يعد بعدها إلي، وفي هذه الفترة فقدت كل شيء. وذكرت ألف مرة مقالة هذا وما أنذرني به، والآن أيضا أذكر عبارته، إذ أرى الحب قد هيأ لي هنا سعادة جديدة. وأرى الأمل الجديد ماثلا أمامي باسم الثغر.

«أعف عني أيها الصديق الهمام، إذا كنت أرتعد الساعة وأنا ممسكة بذراعك، فإن الملاح حين يضع رجله فوق أديم الثرى، بعد الذي عاناه في أسفاره، يحس بالأرض تخفق وتهتز تحت رجليه، مهما كانت ثابتة راسخة.».

هكذا تكلمت الفتاة، ثم ضمت الخاتمين أحدهما إلى الآخر، فأخذ هرمن يتكلم بصوت فيه رقة النبل وشهامة

---

(١) ليس مجرد مصادفة أن يكون هناك شبه بين هذه العبارة وبين الآية (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) فإن جوته كان يعرف القرآن ويتمثل ببعض من آياته.

الرجولة، فقال: «أي دروتيه! لئن كانت الكارثة شديدة فادحة، فلتكن الرابطة التي تجمعنا اليوم أقوى وأشد. يجب أن نثبت وأن نصمد للحوادث، وأن نحتفظ بأنفسنا وبما ملكت أيماننا. فإن الرجل الذي يتزعزع ويضطرب في هذه الأوقات المزعزعة، إنما يزيد الخطب هولاً واستفحالا، أما الذي يثبت ويدأب، فإنه سرعان ما يلم شعث هذا العالم.

«وما ينبغي للألماني أن يحاول نشر تلك الحركة الفظيعة في بلاده، وأن يتردد من تجربة إلى تجربة، إن لنا مبادئنا وسننا، فلنذكرها للناس صراحة ولنعلنها لهم، إن الشعوب التي تثبت على مبادئها، والتي تجاهد في سبيل الله وفي الذود عن الشرائع، وفي حماية الآباء والنساء والبنين. أولئك يمدحهم الناس جميعاً، وإن كان نصيبهم في الحرب الهزيمة.

اليوم قد أصبحت لي يا دروتيه! واليوم أصبح كل شيء أملكه أعز علي مما كان قبلا، فإني الآن لا أحافظ عليه أو أنعم به في حزن واهتمام، بل في بسالة وقوة، ولئن تهددنا العدو المغير، في العاجل أو في الآجل، فلتكوني أنت أول من يقلدني سلاحي ويعدني للقتال؛ ولعلمي أنك خير من يرعى الدار ويرعى الوالدين

الحبيبين، فإني سأعرض صدري آمناً مطمئنا للأعداء. ومتى أصبح جميع الناس يرون رأيي، فهنالك تقف القوة أمام القوة، ونتعم كلنا بنعمة السلام.».

الفهـــرس

صدر عن دار
طلاس
للدراسات والترجمة والنشر

اسم الكتاب	المؤلف	المترجم	السعر[1] ليرة
رسالة الاسلام ــ الرسول العربي	العماد مصطفى طلاس ..	....	٢٥
فارس الأطلس ــ عقبة بن نافع	العماد مصطفى طلاس ..	....	١٠
فطير صهيون	العماد مصطفى طلاس ..	....	١٦
راعي القدس ــ ايلاريون كبوجي .	العماد مصطفى طلاس ..	....	١٥
فارس الجزائر ــ الأمير عبد القادر ..	العماد مصطفى طلاس ..	....	١٧
المصطفى من أحاديث المصطفى ..	العماد مصطفى طلاس ..	.. ..(قياس كبير)	٦٠
		........(قياس صغير)	٣٠
كذلك قال الأسد	اختارها العماد	..........(قياس كبير)	٣٠
	مصطفى طلاس	....(قياس صغير)	١٥
حب وبطولة..........	سليمان العيسى	....	١٥
قصة المتنبي....	أحمد الجندي...........	....	١٢
صبرا وشاتيلا (تحقيق حول مجزرة) .	أمنون كابليوك	المكتب العربي للترجمة ...	٦
روضة الورد..............	سعدي الشيرازي	محمد الفراتي	٥
سعد الله الجابري	أحمد الجندي...........	.. ..	١٥

(١) السعر يشمل كامل الأجزاء

اسم الكتاب	المؤلف	المترجم	السعر
فراشات غجرية	نضال قبلان		٦
كيان (قصة)	كوليت الخوري		٩
البطل والتاريخ	صفوان قدسي		١٨
خريف الغضب (جزءان)	محمد حسنين هيكل		٣٠
كفاحي	آدولف هتلر	لويس الحاج	١٨
ماجدولين	الفونس كار	مصطفى لطفي المنفلوطي	١٠
رسالة من امرأة مجهولة والحب الجنوني	ستيفان زفايغ	الجيل عبود	٨
سقوط السندباد	اندريه مالرو	د . سامي الجندي	٩
عشرة أيام هزت العالم	جون ريد	فواز طرابلسي	٢٢
هكذا يتكلم القائد	نابليون بونابرت	عبد الله حيدر	٨
حبات من الرمال الذهبية	سليمان العيسى وشعراء آخرون		١٠
رواد النغم العربي	أحمد الجندي		٩
حبال من رمل	ولبر كرين ايفلاند	د . سهيل زكار	٢٥
البطالة المقنعة في الوطن العربي	سمير عبده		١٤
باقة نثر	سليمان العيسى		١٨
موجز ديوان المتنبي (شرح اليازجي)	اختصره سليمان العيسى		٢٠
طريق التبغ	ارسكين كالدويل	منير البعلبكي	١٥
تولستوي	ستيفان زفايغ	ميشيل واكيم قصي الأتاسي	١٠
حب بباريس الجديد (شعر) (بالعربية والفرنسية)	جيرار مورغ	رواد طربيه	٨
الاستراتيجيتان السوفييتية والأمريكية	هنري باريس	أحمد عبد الكريم	١٠

اسم الكتاب	المؤلف	المترجم	السعر
شعراء من بلاد الشام	أحمد الجندي	....	١٥
رد على التوراة	ندرة اليازجي	....	١٠
رد على اليهودية واليهودية المسيحية .	ندرة اليازجي	....	٢٥
الصراع على سورية	باتريك سيل...........	سمير عبده ـ محمود فلاحة	٢٠
نظرات ومسائل في الإدارة	أحمد الدباس	....	٤٠
روائع طاغور	رابندرانات طاغور	الدكتور بديع حقي	٢٠
الفراشة وقصائد أخرى .... (بالعربية والانكليزية)	سليمان العيسى	برندا ووكر............	١٠
العواصف	جبران خليل جبران......	....	١٠
البدائع والطرائف................	جبران خليل جبران......	....	١٠
النبي	جبران خليل جبران......	ثروت عكاشة..........	٨
السابق	جبران خليل جبران......	انطونيوس بشير	٥
عرائس المروج..................	جبران خليل جبران......	....	٥
التائه	جبران خليل جبران......	عبد اللطيف شرارة......	٦
المجنون	جبران خليل جبران......	انطونيوس بشير	٥
الأرواح المتمردة................	جبران خليل جبران......	....	٨
دمعة وابتسامة	جبران خليل جبران......	....	١٠
الحروب والحضارات	مدرسون في المعهد ...... الفرنسي لعلم الحرب	أحمد عبد الكريم	٢٠
بروتوكولات حكماء صهيون ...... (جزءان)	عجاج نويهض	....	٣٠
حرب الثلاث سنوات ٦٧ ـ ٧٠ (مذكرات)	الفريق أول محمد فوزي .	....	٢٥
قصة الرعب والجرأة.............	الكسندر بيك..........	....	١٥
رفاييل.........................	لامرتين................	محمد حسن الزيات	١٦
فيكتور هيجو	....	فريد جحا............	١٥

اسم الكتاب	المؤلف	المترجم	السعر
الأمنية الأوروبية	الدريه بريغو	أحمد عبد الكريم	١٥
أو الدفاع المشترك المفقود	و دومينيك دالفيد		
الطاعون	البير كامو	د . سهيل ادريس	١٥
السلام الضائع في اتفاقات....	محمد ابراهيم كامل......	....	٣٠
كامب ديفيد	وزير خارجية مصر الاسبق		
استراتيجية العصر النووي	الجنرال بيير غالوا	اللواء الركن سميح السيد..	١٢
حرب البترول السرية	جاك بيرجيه وبرنار توماس.	اللواء الركن سميح السيد..	١٢
تاريخ الأدب الغربي (جزءان) .	مجموعة من الاساتذة .	....	١٠٠
مختارات من الشعر الروسي	. ...	د . ماجد علاء الدين ..	١٨
إلى أواصل الأزرق	سليمان العيسى	....	١١
الحرب العالمية الثالثة	الجنرال جون هاكيت ...	موسى الزعبي...........	٣٣
يسوع ابن الانسان.	جبران خليل جبران.	....	١٢
نشيد الجمر	سليمان العيسى	....	٢٥
من الشعر اليوناني الحديث	....	الياس معوض...........	١٠
يوميات وزير (جزءان)	ريتشارد كروسمان	العميد صبحي الجابي ...	٥٠
ليالي الشيطان الأخيرة (راسبوتين) ..	فالنتين بيكول	عبد الوهاب مدور......	٤٠
ديك الجن الحمصي..............	أحمد الجندي	....	١٠
(ديوان ودراسة)			
سلام غير مرغوب فيه	لجنة أمريكية	اللواء الركن سميح السيد..	٩
الجدل الكبير حول..............	ريمون آرون..............	اللواء الركن سميح السيد..	١٥
الاستراتيجية الذرية			
عودة وضاح اليمن (شعر)	د . عبد العزيز المقالح ...	....	٢٥
الحرب الأهلية العالمية	جاكلين غرابان	اللواء الركن سميح السيد..	١٤
	وجان بيرنار بيناتيل		
المسألة السورية المزدوجة..........	ميشيل كرستيان داڤيه...	اللواء جبرائيل بيطار.....	٢٢
(سورية في ظل الحرب العالمية الثانية)			

اسم الكتاب	المؤلف	المترجم	السعر
عملية كمال عدوان	العماد مصطفى طلاس		٨
الثورة الجزائرية	العماد مصطفى طلاس		٨٠
مع سليمان العيسى	مجموعة من الكتاب		١٤
من وحي المرأة (شعر)	عمر أبو ريشة		٢٥
كيف سقينا الفولاذ	نيقولاي أوستروفسكي	غائب طعمة فرمان	٢٥
رباعيات عمر الخيام	عمر الخيام	أحمد الصافي النجفي تقديم أحمد الجندي	١٥
المسيح يُصلب من جديد	نيكولاس كازانتزاكس	شوقي جلال (جزءان)	٤٠
وجيز علم الجنس الهندي	فاتسيايانا	كاستون لانول	٢٠
لحن كرويتزر	ليون تولستوي	د سامي الدروبي	١٣
أنشودة الحب الظافر (قصص)	تورجنيف	عدنان سبيعي وخليل شطا	١٢
الأيام المضيئة (قصص)	كوليت الخوري		١٥
أغاني الأغاني (٣ مجلدات)	أبو الفرج الأصفهاني	اختصره يوسف عون	١٠٠
شوارد قلم في الأدب والنقد	محمد روحي فيصل		١٥
العمران في مقدمة ابن خلدون	د . سعيد محمد رعد		٤٠
حديث الهيل (شعر بدوي)	عمر الفرا		١٢
مذكرات ديغول (٤ أجزاء)			١٠٠
١ ـــ النفير	الجنرال ديغول	عبد اللطيف شرارة	
٢ ـــ الوحدة	الجنرال ديغول	عبد اللطيف شرارة	
٣ ـــ الخلاص	الجنرال ديغول	خليل هنداوي ابراهيم مرجانة	
٤ ـــ الأمل	الجنرال ديغول	د . سموحي فوق العادة	
مذبحة صبرا وشاتيلا	العماد مصطفى طلاس		٢٢
الآداب المعنوية للصلاة	الإمام آية الله الخميني	أحمد الفهري	٦٠
رسائل أبي حيان التوحيدي	د . ابراهيم كيلاني		٢٨

اسم الكتاب	المؤلف	المترجم	السعر
خروتشوف	بسام العسلي		٢٤
ستالين	بسام العسلي		٢٥
الشعر بين الرؤيا والتشكيل	د . عبد العزيز المقالح		٢٨
التربية الرياضية الحديثة	فايز مهنا		٢٧
سيف الله (خالد بن الوليد)	العماد مصطفى طلاس		٢٢
آفاق الاستراتيجية الصهيونية	العماد مصطفى طلاس		٢٠
زنوبيا (ملكة تدمر)	العماد مصطفى طلاس		٢٠
الثوم والعمر المديد	العماد مصطفى طلاس		٢٢
القدس في فلسطين	جورج مونتارون	فريد جحا	١٠
كيسنجر في البيت الأبيض (مذكرات في اربع مجلدات)	هنري كيسنجر	خليل فريجات	٢٠٠
اعترافات جان جاك روسو (ثلاثة أجزاء)	جان جاك روسو	محمد بدرالدين خليل	٩٠
الطريق إلى بئر سبع	ايثيل مانين	د . نظمي لوقا	٢٥
سيوف عربية (شعر)	نذير الحسامي		١٠
الوردة تُعشق برعماً	نذير الحسامي		١٢
كازانوفا	ستيفان زفايغ	ميشيل واكيم قصي أتاسي	١٥
حصاد الحب	إميل زولا		٢٠
الزنبقة الحمراء	أناتول فرانس	أحمد الصاوي محمد	٢٥
هل يمكن السيطرة على الحرب (النووية) ؟	معهد الدراسات الاستراتيجية (لندن)	د . محمد حجار	١١
يوم العيد	انطون تشيخوف	عدنان سبيعي وخليل شطا	١١
المعلقات السود والذئب (شعر)	نجيب جمال الدين		٢٥
الغزو الاسرائيلي للبنان	مجموعة من الباحثين بإشراف العماد مصطفى طلاس		٣٠

اسم الكتاب	المؤلف	المترجم	السعر
المعجم الطبي الموحد انكليزي ـ عربي ـ فرنسي	مجموعة من الاطباء الاختصاصيين	....	١٠٠
الكنّة (عن البلغارية)	جيورجي كاراسلافوف	حسين راجي	٢٠
اليسا فيتا باغريانا (مختارات شعرية)	....	حسين راجي	١٦
شعراء فرنسيون معاصرون	سعد صائب	....	٢٠
فن الشعر في قصائد الشعراء وكلماتهم	مجموعة من الأساتذة	سعد صائب	٢٢
الدليل العملي للوقاية من أمراض القلب	المركز الطبي لجامعة بوسطن	دار طلاس	٢٢
ايزابيلا	اندريه جيد	د. صبري فهمي	٥
سيرة بالتازار كوسا (البابا يوحنا الثالث والعشرون)	اليكساندر باراديسيس	بسام اسخيطة	٥
هرمن ودروتيه	غوته	د. محمد عوض محمد	١٥
التحكم بوزن الجسم عن طريق اليوغا	ريتشارد . ل . هيتل مان	دار طلاس	٢٢
طريق الحرية	هوارد فاست	سليم ابراهيم عبود	٣٠
الأدب والأنواع الأدبية	مجموعة من الاساتذة	طاهر حجار	٢٥
البراعم (قصائد للأطفال)	مختارات من الأدب الالباني	عبد اللطيف ارناؤوط	١٢
العصافير وقوس قزح (قصص للأطفال)	= = = =	عبد اللطيف ارناؤوط	١٤
التقرير الكامل للجنة كاهان الصهيونية حول مذبحة صبرا وشاتيلا	النص الكامل وإفادات بعض الشهود	....	٨
ومرّ صيف	كوليت الخوري	....	٢٠
سر الصلاة أو صلاة العارفين	الإمام الخميني	أحمد الفهري	٣٠
نبضات أفئدة	....	قدم لها العماد مصطفى طلاس	١٠

اسم الكتاب	المؤلف	المترجم	السعر
لوليتا	فلاديمير نابوكوف	مروان الجابري	٢٠
ديغول ما له وما عليه	بيرنارد ليدويدج	اللواء الركن سميح الـ يد	٣٥
العرس الكبير	اعداد وجمع قمر كيلاني		١٧
العلاقات الدبلوماسية الأميركية	توماس آ . برايسون	دار طلاس	٣٠
ايزابيلا	اندريه جيد	د . صبري فهمي	١٥
العلاقات الخطرة بين الجنسين	كودير لوي دي لاكلو	اديب مروة	٣٥
آه يا أنا	سهام ترجمان		٧٥
تدخل الدول العظمى في الشرق الأوسط	بيتر مانغولد	اديب يوسف شيش	٣٠
هرمن ودروتيه	غوته	د . محمد عوض محمد	١٥
أصوات في الليل	صلاح دهني		٢٠
مصلح البيانو الضرير	مارسيل بريفو	حسن صادق	١٥
اصداء النضال العربي في شعرنا المعاصر	أحمد سعيد هواش		١٣
أوراق مسافر	الدكتور عمر موسى باشا		٢٠
حكاية الأميرة حنان	خالدمحي الدين البرادعي		٢٠

تحت الطبع

— معجم الأسماء العربية.	العماد مصطفى طلاس الأستاذ نديم عدي	
— الفن الاسلامي..	د . عفيف بهنسي	
— الجامع الأموي (باللغات · .... العربية والافرنسية والانكليزية)	د . عفيف بهنسي	
— مذكرات ادغار فور	ادغار فور	د حافظ الجمالي
— عنب المائده.. . .	مجموعة من الباحثين المختصين	دار طلاس
— امرؤ القيس............. ... (عاشق وبطل درامي)	قمر كيلاني	
— الف وخمس مية .... من الأمثال الشعبية	سيمون حمصي	
— ١٠٠ قصة بهيجة للاطفال.... (في أربعة أجزاء)	اصدار................ دار (هملين) البريطانية	سليمان العيسى بهيج بدين
— كذلك قال الاسد............ (طبعة ثالثة مزيدة ومعدلة)	....	قدم له العماد مصطفى طلاس
— لا شيء خلف الفولاذ......... (رواية)	جاكلين سوزان.........	عبد الكريم ناصيف
— النباتات العسلية...............	....	ترجمة دار طلاس
— دراسات حول النظرية الديمقراطية	رينيه دو لاساريير........	د . حافظ الجمالي
— فن التصوير	جون هيجكو...........	العماد مصطفى طلاس

ــ تلخيص المتشابه في الرسم ..... وحماية ما أشكل منه عن بوادر التصحيف والوهم	أحمد علي ثاث .... (أبو بكر الخطيب البغدادي)	تحقيق سكينة الشهابي
ــ الدليل العملي لمنتجي الغذاء الملكي	آلان كاياس.....	دار طلاس
ــ العسل غذاء وعافية	جان لوك داريغول.......	دار طلاس
ــ الوجبات الغذائية الهندية السريعة .	ميشيل بالديا...........	مهند الغبرة
ــ التربية الحديثة للأغنام	د . بوهيير دولبكليز	دار طلاس
ــ الأصابع الصغيرة .... تنمو في الظلام	نزار مؤيد العظم	
ــ مناهج التعليم البوليتكنيكي	حسين عمر حمادة	

العماد

في

اللغة والعلوم والفنون والأعلام

معجم لغوي موسوعي

سيصدر قريباً عن الدار بالتعاون مع مؤسسة

لاروس الفرنسية بترجمة معجمها الموسوعي L 3

هرمن ودروتيه

«في ألمانيا فاز جوته بإعجاب عظيم حين أذاع هذه القصة . فتن بها الشعب ، ورضي بها أكثر النقاد . ولم تدع ثلاث سنين حتى تجاوزت ألمانيا واللغة الألمانية ، وإذا هي تترجم إلى الفرنسية والانكليزية والإيطالية . وتمضي بعد ذلك أعوام ، وإذا هي تترجم إلى اللاتينية . فإذا انتصف القرن التاسع عشر كانت هذه القصة موضوع رسالة الدكتوراه في السوربون ؛ فإذا تقدم هذا القرن كانت هذه القصة موضوع البحث الواسع العميق في البيئات العلمية والأدبية المختلفة في أوروبا» .

طه حسين



السعر

هرمن ودروتيه

«في ألمانيا فاز جوته بإعجاب عظيم حين أذاع هذه القصة . فتن بها الشعب ، ورضي بها أكثر النقاد . ولم تدع ثلاث سنين حتى تجاوزت ألمانيا واللغة الألمانية ، وإذا هي تترجم إلى الفرنسية والانكليزية والإيطالية . وتمضي بعد ذلك أعوام ، وإذا هي تترجم إلى اللاتينية . فإذا انتصف القرن التاسع عشر كانت هذه القصة موضوع رسالة الدكتوراه في السوربون ؛ فإذا تقدم هذا القرن كانت هذه القصة موضوع البحث الواسع العميق في البيئات العلمية والأدبية المختلفة في أوروبا» .

طه حسين



السعر